مختـــــارات
من الأدب العربي القديم
عرض ودراسة

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

الأستاذ الدكتور
عبد الجواد محمد المحص
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

٢٠٠٧

مكتبة بسملة
الإسكندرية ت: ٢٢٢٣٤٤٤




تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

مختـــــــارات
من الأدب العربي القديم
عرض ودراسة

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

الأستاذ الدكتور
عبد الجواد محمد المحص
أستاذ الأدب والنقد
جامعة الأزهر

٢٠٠٧
مكتبة بسملة
الإسكندرية ت: ٣٢٣٣٤٤٤


بسم الله الرحمن الرحيم

الاختيــار الأول

من أمثال العرب

للأمثال أهميـة أدبية خاصة ؛ فهي صورة لوجدان المجتمع ، ومقياس دقيق لواقـع حياة الشعوب ؛ وتكتسب في نظري بعدا دلاليا خاصا لا يضاهيه في دقتـه نتاج أدبي آخر ؛ لأن الشعر قد يصور الواقع أحيانا وقد يجنح به قائلـه إلـى المبالغة ، أو يهـوم في أجواء الخيال ، والخطابة يدخلها التعمل ، وقد تـفـرض بعض ما تحويه من أفكـار دوافع خارجة عن نفس الأديب ومشاعره ورؤاه ، وكذلك الكتابة .

أما الأمثال فإنها تكون نتاج التلقائية والصراحة ، وهي تسجيل أمين للحظة التـأمل التي يرصـد الإنسان فيها ما حوله ، ويتأمله بروح ناقـدة ، ويستخلص ما يوحي به مـن دلالة ، وما فيـه مـن عبرة ، ومـن ثـم اكتسبت الأمثـال أهميتهـا ؛ لامتزاجهـا بعاطفـة الإنسان ومعاناته ، وتمثيلها لوثبـات عقلـه الراصـد ، وومضـات فكـره المسـتثار ، كمـا تكتسب بعدا فنيا له مكانته وأهميته وهو صيغتها اللغوية المتميزة التي كفلت لها الذيوع والسيرورة ، وجعلت الناطقين باللغة يحرصون على إيرادها في كلامهم ، ويستأنسـون بما تنطوي عليه من فكرة دالة ، أو رؤية مستبصرة ، وتتناقلتها من ثَمَّ الأجيال .

ولا تختص الأمثال بأمة دون أمة ، بل هي إرث إنساني ، وخاصية إنسانية عامـة ولعل في ذلك عبرة يستفيدها أولو البصيرة ؛ إذ تعد الأمثال إرثا حكميا ، وتراثا حافلا بـالخبرة والتجربـة التـي تفرزهـا عقـول البشـر فـي كـل أمــة ولـدى مختلـف البيئـات والمجتمعـات وعلـى امتداد العصـور ، وكأنهـا زاد عقلــي مهـم تتــوارثه الأجيــال ، وخبرات حياتية تضيفهـا الإنسـانية إلـى رصيـدها ، كمـا تضيـف فـي مجـالات العلـوم والصنائع والاكتشافات العملية التي تستفيد منها في بناء صرح الحضارة ، الذي يزداد

شموخا على مر العصور والأجيال .

وفي تراثنا العربي ألوان من الأمثال ، منها ما يعرف لدى العلماء بالأمثال القديمة وهي تلك التي أُثرت عن العرب في العصر الجاهلي وعصور الإسلام الأولى حتّى العصر العباسي ، وهناك ما يعرف بالأمثال المُوَلّدة وهي التي جمعت بعد ذلك ودخلت فيها أمثال من تراث الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم ممن امتزجوا بالعرب بعد الفتح الإسلامي ، وانصهروا في بوتقة الحضارة الإسلامية ولغة العرب .

وهناك أمثال القرآن الكريم ، وأمثال الحديث النبوي الشريف ، وهناك الأمثال الواردة على صيغة (أفعل من كذا) ، وهذه الألوان حظيت باهتمام العلماء والباحثين قديما وحديثا فجمعوها وشرحوها ورتبوها في الأعم الأغلب على حروف المعجم ، ومن أشهر تلك المؤلفات :

- الأمثال في القرآن الكريم — لابن قيم الجوزية .
- الأمثال من الكتاب والسنة — لمحمد بن على الترمذي .
- الأمثال — لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي .
- أمثال العرب — للمفضل بن محمد الضبي .
- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة — لحمزة الأصبهاني .
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال — لأبي عبيد البكري .
- المستقصى في أمثال العرب — لجار الله الزمخشري .
- مجمع الأمثال — لأحمد بن محمد الميداني .
- زهر الأكم في الأمثال والحكم — للحسن اليوسي .

• • •

ويلحظ في الأمثال عند سوقها والائتناس بها جانب العبرة المستفادة ، ومما يؤكد ذلك ما أوردته بعض كتب اللغة ، يقول صاحب لسان العرب في مادة (مثل) :
" ...... وقد يكون المثل بمعنى العبرة ، ومنه قوله عز وجل : " فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين " فمعنى السلف أنا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون ، ومعنى قوله " ومثلا " أي عبرة يعتبر بها المتأخرون " .

وهذا الجانب أحد الأسباب التي يهمنا أن نستعرض الأمثال العربية الموروثة على ضوئه في هذا الفصل ، وهناك أيضا جانب لا يقل أهمية عنه في تقديرنا واعتبارنا هنا وهو المغزى الأدبي للأمثال بحسبانها مصوغة بعبارة لها تميز أدائي معبر ، يهمنا أن نسلط عليه الضوء .

القيمة الأدبية للأمثال :

لا شك أن جانبا كبيرا من أمثالنا العربية الموروثة تعد قطعا أدبية بديعة ؛ إذ تحفل ـ على إيجازها ـ بكثير من السمات الأسلوبية المعبرة ، ولكن بعض الأمثال الذائعة على الألسنة قد تفقد جانبا من بريقها التعبيري بكثرة الدوران على الألسنة والتوارد على الأسماع ، بيد أن هناك أمثالا عديدة مما تضمه مجاميع الأمثال ولم تشتهر شهرة الذائع المطروق لها سحرها وجاذبيتها ، وعلى الأخص عندما نتفرسها للمرة الأولى .
وتتنوع براعة أسلوب المثل ؛ إذ يعبر في بعض الأحيان بالصورة الفنية الدالة ، وأحيانا بتجسيم المعاني ، وأحيانا بالرمز ، وأحيانا بالعبارة الساخرة ...
ونسوق بعضا من تلك الأمثال لنتبين براعاتها الأسلوبية .

من الأمثال التي لجأ قائلوها إلى صياغة فكرتها من خلال التصوير المؤثر قولهم :

(كالحادي وليس لـه بعير !!) " مجمع الأمثال ٣/٢٢" .

والحادي هو الذي يحدو الإبل لينشطها للسير ، والحداء هو الغناء بترديد بعض الأشعار المعبرة ، وكانوا يختارون له أصحاب الأصوات المشجية ، وقد ورد في بيان معنى الحديث الشريف " ارفق يا أنجشة بالقوارير " الذي رواه البخاري في كتاب الأدب ـ أن أنجشة هذا كان حاديا عذب الصوت مجيدا للحداء ، وأنه كان يحدو بركب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين وكان معهم نساء في الهوادج ، فقال له الرسول ذلك : أي قلل من تطريبك وحدائك ؛ لأن الإبل كانت تسرع في السير وتنشط عند سماعها صوته فيتعب ذلك راكبيها وبخاصة النساء ، وفي مقالة المصطفى صلى الله عليه وسلم بلاغة جميلة إذ كنى عن النساء بالقوارير تشبيها لهن في رقتهن وقلة احتمالهن بقوارير الزجاج التي تحتاج عناية خاصة حتى لا تتعرض للكسر .

وهذا المثل الذي سقناه يضرب لمن يدعي ما ليس عنده ، أي الشخص الذي يزعم لنفسه قدرة على أشياء أو الاضطلاع بأمور لا طاقة له بها ، وقد جاءت عبارة المثل مصورة للمعنى تصويرا بديعا ؛ إذ شبهت ذلك الدعيّ بالحادي الذي ليس له بعير ، واستوحت الصورة المعبرة عن المعنى من البيئة العربية ، ومن واقع الحياة فيها .

ولا يخفى ما للمثل من دلالة معنوية ؛ إذ يسخر من مسلك الأدعياء النفاجين ويسفه صنيعهم ويكشف زيف ما يدعون ، ولذلك دوره المهم في نقد السلوك الشائن والتشنيع على الكاذبين .

وإذا تأملنا المثل الآخر :

(وعيدُ الحُبارَى الصَّقْر)   " المستقصى ٢/ ٣٧٥ " .

وجدنا تشبيها طريفا صَوَّر المعنى من خلاله ؛ والحبارى طائر صغير ضعيف الشأن أما الصقر فهو طائر جارح مشهور بالقوة والفتك بغيره من الطيور ، وقد شاع استخدامه منذ القدم في الصيد وكان الناس يدربونه على أن يصطاد لهم الطيور .

ويضرب هذا المثل للشخص الضعيف يهدد من هو أقوى منه وأشد . وواضح أن عبارة المثل قد صاغت هذا المعنى صياغة قوية معبرة من خلال تلك الصورة المُحَسَّة التي شرحت المعنى وبينته أكمل بيان .

وفي أمثالنا الموروثة التي من هذا القبيل المثل :

(القَطْرَةُ بدوامها تَحْتَفِرُ الصخر)   " المستقصى ١/ ٣٣٩ ".

وفكرة المثل تعبر عن تأثير الشيء القليل إذا طال واتصل . وقد عرضت العبارة المعنى من خلال صورة محسة ، ندركها ونلمسها ، ويعايشها العربي في بيئته ، وهي صورة قطرات الماء القليلة التي تترك أثرها في الصخر . ولا ريب أن الصورة تؤدي المعنى أداء قويا ، ولا تخفى على المتأمل دلالة المثل على أهمية الدأب في العمل ، والصبر على مشاقه ، وعدم اليأس من قلة تأثيره الوقْتِيّ ؛ لأنه بدوام المثابرة على الجهد القليل المتاح تأتي النتائج المثمرة ، التي تكون نتاج الصبر ومدافعة الملل ، واحتمال الصعاب ، والإصرار على بلوغ الغاية المنشودة مهما كثرت العقبات .

وفي عبارة المثل :

(إسْتَمْسِكْ فإنَّـكَ مَـعْدُوٌّ بك) " المستقصى ١/ ١٥٨ " .

نرى المعنى قد وضحتـه الصـورة وقربتـه للأفهـام ، ودللـت عليـه تدليـلا مقنعـا ؛ فهـو يضرب في التحذير من الأخطار المتوقعة ، وأخذ الأهبـة لملاقـاة الشدائـد . ولا مريـة في أن من يركب دابة تعدو به يكون أحوج إلى أن يستمسك برحلهـا وزمامهـا حتـى لا تطرحه أرضا ويكون مصيره السـقوط الـذي ربمـا عرضـه للهـلاك . والمثل كمـا هـو واضح من سياقه مستوحى من البيئـة العربيـة ، معبرعن موجوداتهـا ووسـائل العيـش والتنقل في ربوعها .

وفي المثل الآخر :

(عَـيْرٌ ركَضَتْـهُ أمُّـه) " مجمع الأمثال ٢ / ٣٣٦ " .

وهو يضرب لمن يظلمه ناصره ، أي من يتعرض للأذي ممن يكون الشأن فيهـم عـادة أن يكونوا حماته المدافعين عنه . وقد عاونت الصورة هنا على طرح الفكرة في عبارة موجزة ، ومن خلال التعبيرعن حقيقة ملموسـة فـي حيـاة العـرب الذيـن كـان الحيـوان جزءا من حياتهم ومصدرا يعتمدون عليه في كثير مـن شـئون عيشـهم ، وهـي صـورة يدركها من يعايشون ذلك الحيوان ويلاحظون طبائعه ؛ إذ تركض الأم أحيانا صغيرهـا وهو يعبث بضرعها ، أو يضايقها على نحو ما فلا تجد وسيلة لتأديبه سوى أن تركضه

وهنا تجسم عبارة المثل تلك المفارقة الغريبة ، أي أن يتعرض الابن للعقاب والأذى من أمه التي يلزم بحكم الفطرة أن تحنو عليه وتدافع عنه . ويوحي المثل أيضا بأن من يستعدى عليه ناصره وحاميه فلا ينبغي أن يطلب العون من أحد آخر ؛ لأنه لن يجد من يتطوع للدفاع عنه في حالته تلك ، وأن عليه وحده أن يتحمل نتيجة ظلم نفسه .

وفي قولهم :

(يا عاقِدُ اذْكُرْ حَـلاً) " مجمع الأمثال ٣ / ٣١٣ " .

نجد المغزى من المثل مطروحا من خلال الصورة التي تشي بمعناه ، وهو يضرب في الدعوة للنظر في العواقب ، وتحسس نتائج ما يقدم الإنسان عليه من أمور تتطلب روية وحسن تقدير للأمور ، وقد لخصت الصورة في عبارتها الموجزة كل تلك المعاني والدلالات ؛ فالشخص الذي يحزم أمتعته للسفر أو الرحيل يكون حريصا على توثيق عرى العُقَدِ التي يربط بها أمتعته ، وهنا يقول له الناصح البعيد النظر :

تَرَفَّقْ في توثيق العُقَد التي تجمعها حول حقائبك أو أمتعتك ؛ لأنك ستحتاج عند بلوغ مقصدك ومنتهى سفرك أن تحل تلك العقد وتفك تلك الأربطة ؛ فلو لم تراع ذلك عند الحزم والشد أتعبك ذلك في الحل وفصم العُرَى .

تجسيم المعاني :

لا ريب أن الذهن يستوعب الأمور المحسة أكثر من إدراكه لبعض المعاني ؛ ومن هنا درج البلغاء على طرح المعاني الدقيقة في إطار تصويري مدرك بالحواس ؛

مما يساعد الإنسان على إدراكها ، ويجعلها متقررة في الأذهان ، واضحة كالأعيـان ، وهذا النهج الأدائي مستفيض في البلاغة القرآنية ، والبلاغة النبوية ، ومستفيض كذلـك في إبداعات الشعراء والخطباء وأرباب البصر بلسان العرب وطرائقهم في التعبير .

ولم تخل الأمثال العربية الموروثة من اصطناع ذلك النهج البليغ الذي يقرر الفكـرة ويجعلها ماثلة جلية .

ومن شواهد ذلك نسوق تلك الطائفة من الأمثال :

قالوا في التعبير عن المتعة التي تصاحب الشيء المحبوب :

(ألَـذُّ مـن الأمـن) * المستقصى ١/ ٣٢٠ * .

فقد صورت عبارة المثل الأمن وهو أمر معنوي يدرك بـالعقل بالشـيء المـاديِّ ذي المذاق الطيب ؛ لتقرب المعنى وتوضحه وتجسمه في إطار مادي محس فـي حين أنـه في الأساس معنويٌّ تدركه النفس ، ولا يأتيها عن طريق الحواس .

وفي أمثالهم التي من هذا القبيل قولهم :

(قَيَّدَ الإيمـانُ الفَتْك) * مجمع الأمثال ١/ ٥٠١* .

فقد صُوِّرَ الإيمان والفتك وهما أمران معنويان بشيئين ماديين قد ربط أحدهما الآخر وأحكم وثاقـه ، وجاء ذلك على سبيل التجسيم لتقريب المعنى وتأكيده .

وهذا المثل يعد حديثا نبويا شريفا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نطق به ، ومعناه أن الإسلام حرم على المؤمن الغيلة ، وهي القتل مفاجأة وعن مَكْرٍ . وهكذا كل ما نطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم يعد حديثا نبويا ، بحسبانه من أقواله عليه السلام ، كما يعد مثلا بالنظر لذيوعه وسيرورته ، ومن أقواله صلى الله عليه وسلم التي ذهبت أمثالا وضمتها مجاميع الأمثال ما يلي :

- (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) " مجمع الأمثال ٣/ ٣٨٤ ".
- (عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونون يولى عليكم) " نهاية الأرب ٣/ ٢ " .
- (المرء على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل) ،،، ،،، ،،، .
- (سبقك بها عكّاشة) " المتقصى ٢/ ١١٦ " .

ومن الأمثال التي فيها تجسيم للمعاني قولهم :

(إن العَجْزَ والتَّواني تزاوجا فأَنْتَجَا الفقر) " المستقصى ١/ ٤٠٧ ".

فالعجز أي الكسل ، والتواني أي التراخي وهما أمران معنويان قد جسما كليهما في صورة زوجين قد جمع بينهما فنتج عنهما وتناسل منهما الفقر الذي هو أيضا من الأمور المعنوية ، وهكذا عبرت جملة المثل عن المعنى المراد عن طريق التصوير والتجسيم . وواضح أن الصورة التي طرح المعنى من خلالها قد أعانت على بروزه واتضاح دلالته ؛ والعبرة المستفادة من المثل تتركز في الدعوة إلى اطراح الكسل واجتناب التواني لأن اجتماعهما في مسلك أي شخص كفيل بأن يورثه الفقر ويؤدي به إلى الضياع ، فهما سببا كل فشل وأُسّا كل هوان ، وبذرتا كل حرمان .

فالإنسان العاقل عليه أن يجد ويعمل ، ويدافع الضعف والتواني ، ويغالب الكسل والتسويف ، فالحياة جهد موصول وسعي دؤوب لا يعرف الهوادة ، وجد لا موضع معه للعبث الفارغ والتضييع المردي ، والإهمال السيء العاقبة .

التعبير الساخر :

وهناك طائفة من الأمثال جاءت في إطار تعبيري ساخر ، ولعل هذه النوعية من أسبق ما عرف في أدبنا العربي من أساليب السخرية والتهكم ، وهي تعبر عن رغبة قائليها في تعميق الإحساس بالمعنى المطروح أو الخاطر المعبر عنه ، وأكثر الأمثال التي من هذا النمط تكون مبنية على رؤية ناقدة لبعض ظواهر السلوك الإنساني ، ورغبة في إبراز ما تنطوي عليه من مفارقة تبعث على الدهشة ، وتثير الحنق في نفوس العقلاء فلا يجدون في التعبير عنها إلا صياغتها في ذلك الإطار اللاذع ؛ بغية محاربتها وإعلان السخط على مقترفيها .

وقد تأتي السخرية في عبارة المثل موجهة إلى سلوك معوج ، أو تصرف فيه إجحاف بحقوق الآخرين ، أو إلى مسلك غريب ، أو خلق ذميم ، وقد تأتي في صورة ردّ لاذع أو تعليق ساخر يدل على ذكاء وحضور بديهة ....

فمن الأمثال التي تقال في السخرية من فعل مجحف ـ قولهم :

(أَحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةَ !!) " مجمع الأمثال ١/٣٦٧ ".

والحشف : أردأ التمر . ومعنى المثل ـ الذي يرد هنا على لسان الشخص المغبون في صفقة ما ـ أتجمع رداءة التمر وسوء الكيل ، فالغبن إذاً قد عمَّ الصفقة من جوانبها

كلها ، وهو يضرب لمن يجمع بين خصلتين مذمومتين . وقد عاون أسلوب الاستفهام الإنكاري في الإيحاء بتلك السخرية المريرة .

ومن تلك النوعية من الأمثال قولهم :

(أَكَسْفًا وإمْساكا !!) " المستقصى ١/ ٢٩٥ " .

والكسف : العبوس وتقطيب الوجه . والإمساك البخل ومنع المعروف . يقوله الشخص الذي يطلب عونا من موسر فيلقى منه الإعراض والحرمان . فهو يقول له : أتجمع عليَّ العبوس والحرمان !؟ . وهو شبيه بسابقه في صيغته ودلالته .

ومنها أيضا قولهم :

(أَغَيْرَةً وَجُبْنا ؟!) " المستقصى ١/ ٢٦٥ " .

أي أتكون منك غيرة وأنت جبان . ويذكر شراح الأمثال في قصة هذا المثل أن امرأة من العرب قالته تعيِّر به زوجها ، وكان قد تخلف عن الخروج مع القوم لغزو العدو ولبث في منزله ، فرأى امرأته تنظر إلى الفرسان من فرجة بالبيت فضربها ، فقالت له تلك العبارة . وكأنها تنكر عليه أن يمارس فعل الغيرة على بيته وحريمه وهو جبان متخلف عن لقاء الأعداء وحماية الحرمات .

ومن الأمثال الواردة في صيغة تهكمية ساخرة قولهم :

(يحملُ شَنٌّ ويُفَدَّى لُكَيْز ؟!)   " مجمع الأمثال ٣/ ٥١٧ " .

وهو يضرب في التعبيرعن سوء الجزاء لمن شأنه أن يُحسِنَ إليه . وشن ولكيز أخوان كان من قصتهما كما ذكر شارحو المثل : أنهما كانا مع أمهما في سفر ، وكانت الأم تحب " لكيزا " وتثني عليه كثيرا وتفضله على أخيه " شن " ، فأحفظ ذلك " شنا " وأغضبه ، وكانوا قد نزلوا في سفرهم ذلك بموضع للراحة ، فلما أرادوا الرحيل فدت الأم لكيزا ودعت شنا ليحملها فحملها وهو غاضب وقال تلك العبارة التي تفيض سخرية ومرارة " يحمل شن ويفدى لكيز " .

وقريب من معنى ذلك المثل قول الشاعر :

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدْعَى لها   وإذا يُحاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

التعبير بالرمز :

ومن الميزات الأسلوبية للأمثال اعتمادها أسلوب الرمز لتأدية مضمونها المراد ، ونعني بالرمز هنا أن يأتي طرح فكرة المثل ومضمونه من خلال الإيماء إلى تلك الفكرة والتلميح إليها دون التصريح أو التقرير ، ولذلك النمط من الأداء الأسلوبي خاصيته المميزة في تأكيد المضمون المراد ، وعرضه مؤيدا بدلالته التي لا تدع موضعا للارتياب فيه .

وإذا أردنا أن نلمس الفارق بين النمط التقريري الساذج والنمط الآخر الإيحائي الرمزي فلنتأمل التمايز بين العبارتين التاليتين في أداء الفكرة المطروحة : عندما نريد

أن نعبر عن أن إنسانا ما تعرض لمكروه فأراد التخلص منه ولكنه بالغ في تجنب الخطر حتى وقع في خطر مقابل له ـ فإننا نقول في العبارة التقريرية : لقد أراد فلان أن يتخلص من كرب فوقع في أشد منه . إذا فعلنا ذلك فنحن نقرر حقيقة ما حدث بأسلوب تقريري خالص ، وهو ما عبر عنه العربي القديم بأسلوب رمزي ذي دلالة موحية بقوله الذي سار مثلا :

(إضطرَّهُ السَّيْلُ إلى مَعْطَشَـة !) * مجمع الأمثال ٢/ ٢٦٤*.

والفارق واضح بين العبارة الأولى التقريرية وعبارة المثل ؛ فالعبارة الأولى عرضت الفكرة مجردة من الجو النفسي الذي أشاعته عبارة المثل والمفارقة الصارخة التي جعلت ذلك الشخص متأرجح بين طرفيها المتناقضين ، إذ هرب خوفا من خطر السيل ذي الماء العارم فأبعد في هربه حتى انقطع عن أي مكان فيه ماء فعرض نفسه للهلاك عطشا !!

وفي الأمثال الموروثة التي عبرت بالجملة الموحية قولهم :

(إنَّكَ لا تَجْني من الشَّوكِ العنب) * فصل المقال/ ١٣٩ * .

وواضح دلالة عبارة المثل على أن الإنسان لا يجني إلا شيئا من جنس ما زرع ونمّى فلا يتوقعنّ عاقل أن يزرع شوكا ثم ينتظر أن يجني منه عنبا ، ولا يحتاج إيحاء جملة المثل إلى أن نبدىءحوله القول ونعيد ، فهو يرسم صورة للفكرة التي يساق المثل لتأكيدها وهي أن الإنسان لا يحصد إلا نتاج ما زرع .

وفي المثل الآخر الذي من هذا القبيل :

(لا يُرْسِلُ الساقَ إلا ممسكاً ساقـا) " المستقصى ٢/ ٢٦٩ " .

وهو يضرب للشديد الحرص ، الناظر للعواقب . وقد رمزت عبارة المثل للمعنى بمسلك الحرباء ، وهي دويبة متسلقة معروف عنها خاصة التلون بلون الشيء الذي تكون فيه ، والحرص الشديد في التنقُّل عبر الغصون وسيقان الأشجار ، فلا تترك الغصن حتى تمسك غصنا آخر . وهكذا يكون سلوك الحريص المتروي الذي يقدر مواضع الخطو قبل أن يقدم عليه .

وقد يكون الرمز في عبارة المثل لمعنى مستفاد من قصة ذاع أمرها واشتهر خبرها . ومن شواهد ذلك قولهم :

(يَدَاكَ أَوْكَـتَا وفُوكَ نَـفَـخ) " فصل المقال / ٣٦١ ".

وهو يضرب لمن تورط في أمر لا يستطيع أن يلقي اللوم فيه على شخص آخر . وأصل قصته أن جماعة أرادوا اجتياز نهر ، وكان بعضهم لا يحسن السباحة ، فاحضروا قِرَباً ثم نفخ كل منهم في قربته وربط فَوْهَتَها ليحتبس الهواء بداخلها فتطفو على الماء ويتعلق بها حتى يعبر النهر ، ولما بدأوا في الاجتياز تبدد الهواء الذي كان في قربة أحدهم ، فاستغاث برفاقه عندما أشرف على الغرق ، فقال له آخر : " يداك أوكتا وفوك نفخ " ومعنى أوكتا : ربطتا . فهو يقول : له أنت الذي جلبت لنفسك الهلاك ؛ لأنك أنت الذي نفخت الهواء وربطت فم القربة !

وهنا نرى معنى المثل قد بُيِّنَ من خلال تلك الواقعة للتشابه بين الموقفين . فقد مثُلتْ حال من يتسبب في توريط نفسه بحال صاحب القربة في القصة التي سيق المثل تعقيبا عليها .

ومن ذلك القبيل قولهم في مثل آخر :

(مَسّي سُخَيْلُ بعدها أو صَبّحِي) " مجمع الأمثال ٣/ ٣٠٢ " .

وهو يضرب للشخص الذي اكتسب ثقة في موقف ما تجعله يعمل مستقبلا دون خوف من أن يعترض عليه أحد . وقصته أن " سخيل " هذه كانت جارية لعامر بن الظرب العدواني ، وكان عامر أحد حكماء العرب المشهورين ، وكانت الجارية ترعى عليه غنمه ، وكان كثير الاعتراض على مسلكها في الرعي ، من حيث توقيت الخروج بالغنم والعودة بها من المرعى . ثم إن عامرا أشكلت عليه فتوى قصده فيها قوم من العرب في أمر خنثى ، فسهر ليالي يبحث لها عن حل ، فأسعفته الجارية بالجواب الصحيح إذ قالت له : أتبعه المبال ؛ فأيتهما بال فهو هو . تعني : احكم بأن يتتبع أثر بوله ، فإن كان يحدث من عضو الذكورة فهو ذكر ، وإن كان من عضو الأنوثة فهو أنثى . فَفُرِّجَ عن عامر وحكم بهذا الحكم ، وقال للجارية : " مسي سخيل بعدها أو صبحي " . أي بعد معاونتك لي في جواب هذه المسألة افعلي في رعي الغنم ما تشائين .

فقد وضحت فكرة المثل ودلالته وهو أنه يقال لمن يباشر عملا لا اعتراض لأحد عليه فيه ـ وضع ذلك المعنى بإزاء قصة الجارية مع الحكيم المشهور أمره عند العرب .

• • •

وهكذا رأينا فنونا من تلوين الأسلوب حفلت به أمثالنا العربية الموروثة مما يؤكد خواصها الأدائية المتميزة ، ويكشف عن جانب من قيمتها الأدبية بحسبانها جملة موجزة ، تحوي فكرة ثاقبة ، ورؤية إنسانية ناقدة ، ولمحة دلالية متميزة .

وهذا الملمح الأسلوبي المتفرد هو أحد الجوانب التي تروع المتأمل لأمثالنا القديمة . فماذا عن الجانب الآخر الذي نستفيده من تفرسنا لهذا الباب من أبواب أدب العرب ؟؟ . هذا ما نعرض له في المبحث التالي .

القيمة الفكرية للأمثال :

وهو جانب لا يقل أهمية عن الجانب الذي تقدم الكلام عليه ، وتعد الأمثال الموروثة معينا ثرًا للفكر النابه ؛ إذ تحفل بخلاصة تجارب العقلاء ، وتأملات الحكماء ، يطالعها المتأمل فيجد فيها متاعا لعقله ، وزادا لخبرته ومعارفه بحقائق الحياة وطبائع البشر ، وهي حقائق باقية على مر العصور ؛ لأنها تلخص ظواهر إنسانية مرتبطة بتكوين الإنسان وميوله ونزوعاته ، وترصد دخائل النفوس وبواعث السلوك التي تتنوع بتنوع بني البشر في مكوناتهم النفسية ، وما ينطوي عليه كل منهم من ميل للخير والفضيلة ، أو نزوع للشر والرذيلة .

ومن سمات هذا العطاء الفكري للأمثال أنه عطاء لا يضمه نسق عقلي منتظم ، بل يأتي في صورة ومضات فكرية متناثرة ، تتناول ظواهر شتى ، وحقائق متعددة ، فمن العسير إذاً على الباحثين وضعها في أُطُرٍ عامة تلم شتاتها ، وتجمع نثارها ، حتى لنجد الشراح القدامى الذين بوّبوا الأمثال تبعا لموضوعاتها قد وقعوا في خلط شديد ، ولم يتسن لهم أن يحصروها ، ومن ثم بقي تبويبها على نسق حروف المعجم هو أنسب الوسائل لحصرها والوقوف على معانيها .

فكيف إذاً يمكننا الاستفادة من عطائها الفكريّ ؟

في تقديري أن الاستفادة يمكن أن تتحقق إذا أولى الباحثون في الأدب العربي الأمثال الموروثة عناية تبرز أهميتها ، وتناسب ما لها من قيمة فكرية ودلالية وتعبيرية ، وذلك بأن يفردوا لها في دراساتهم مجالا أوسع ؛ لأن العناية بها تكاد تكون معدومة ، وتنحصر في فصول هينة الشأن تأتي عرضا ، ولا تكافيء ما للأمثال من قيمة ، ولا تعرض من عطاءاتها ودلالاتها سوى النزر اليسير .

ويهمنا في هذا المبحث أن نعرض جانبا من القيمة الفكرية للأمثال ونكتفي من ذلك بقيمتين جوهريتين :

أولاهما : الأمثال وخبرة الحياة .

الأخرى : الأمثال وحسن الاستفادة من المواقف .

أما عن عطاء الأمثال الدال على خبرة الحياة فهو من أوسع ما يستفاد منها من جانب قيمتها الفكرية ؛ فلايزال المتأمل للأمثال من هذا الجانب في دهشة من عطاءاتها الدالة ، وحكمها النافعة ، وخبراتها الثرّة ، وكأنه يتلقى نصائح قيّمة ، ووصايا نفيسة من حكيم مجرب قد خبر الحياة ، وعالج مشكلاتها ، واستنتج خلاصة تجاربها وحكمها وآثر بها عزيزا يمحضعه النصح ، ويؤثره بالفكر الصائب ، والرأي السديد .

ونعرض هنا طائفة من الأمثال التي تؤكد ما قررناه :

جاء في أمثالنا الموروثة قولهم :

(كُلُّ امرِيءٍ بِطَوَالِ العَيْشِ مَكْذُوبُ) " مجمع الأمثال ١٢٤/٣ " .

وهو يلخص ظاهرة يعاني منها الإنسان على جهة العموم ، وهي ظاهرة الاغترار بطول الأجل وامتداد العمر ، وهو بسبب ذلك كثيرا ما يُخدَعُ عن نفسه ، فلننظر كيف صورت لنا عبارة المثل تلك الحقيقة التي لا يماري فيها أحد بصورة من يبني آماله على كذبة كبرى يكون هو أول ضحاياها ، وأيا كانت مداخل ذلك الاغترار وأسبابه فإن كـلاً منا كما أكدت عبارة المثل مكذوب عليه ومخدوع عن نفسه ومصيره .

وقالوا أيضا :

(تَمْرَةٌ وزُنْبُور) " المستقصى ٣٢/٢ " .

وفيه نرى حقيقة ماثلة ، وحكمة صائبة ، يعرضها علينا العربي في تلك الجملة الموجزة التي تتضمن معاني وتجارب يطول بيانها وشرحها ، فالحياة خير ممزوج بالشر ، ونجاح محفوف بالمعاناة والكفاح ، تماما كما تلخص عبارة المثل صورة حلاوة التمرة التي يجنيها مجتلبها من رؤوس النخل بالزنبور الذي قد يلدغه وهو يجنيها ، فلم تخلص له حلاوتها ، ولم تصف له لذتها .

فعلى العقلاء إذاً أن يدركوا تلك الحقيقة ، ويوطنوا أنفسهم على تحمل مصاعب الحياة ومكابدة مكارهها ومراراتها ، وصدق الله العظيم القائل " لقد خلقنا الإنسان في كبد " .

ومن أقوالهم التي تستفاد خبراتها وتجاربها قولهم :

(لا تَعْدَمُ الحَسْناءُ ذَامًا)   * فصل المقال /٣٩ * .

وهو مثل نابع من خبرة قائله بطبائع الناس وما جرى عليه أمرهم ؛ إذ تختلف أذواقهم ومشاربهم ، وقد يداخل بعضهم الحقد على الآخرين ، فلا تستريح نفوس الحاقدين منهم للإقرار للحسناء بتميزها ، وهكذا الشأن في معظم شئون الحياة وميادينها ؛ إذ يجد النابغون والنابهون منهم من ينتقص قدرهم وينفس عليهم تفوقهم .

فعلى العقلاء إذاً أن يعرفوا ذلك ويضعوه في حسبانهم ، ويراعوا احتمالاته ، وبخاصة عندما يتصدُّون للحكم بين الناس ، أو يقرأون سير النوابغ ومواقفهم في بعض القضايا ؛ لأن بعض تلك الاتهامات قد تكون نابعة من حقد دفين ، أو حسد جرت العادة بتوقع مثله بين أهل كل زمن ، وبخاصة إذا كانوا ممن يحترفون عملا واحدا أو يزاولون نشاطا يمكن أن تشتعل بينهم المنافسة بسببه .

وقالوا أيضا في أمثالهم :

(أجْلَسْتُ عبْدي فاتّكأ)   * فصل المقال / ٣١٤ * .

وهو يصور حقيقة واقعة في حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية ، تتمثل في أن تهاون القَيِّمِ أو الرئيس مع من له عليه القوامة أو الرئاسة قد يجرِّئه عليه ، ويجعله غير هائب له ، فيفسد ذلك التهاون من الرئيس المرؤوسين ، ولا يستطيع أن يمسك بزمام الأمر . وتلك حقيقة واقعة يلمسها الرئيس في مرؤوسيه ، ويحسها الأستاذ مع تلاميذه ، ويعايشها الأب في بيته .. وهكذا في كل نواحي الحياة .

فعلى الحكيم البعيد النظر أن يستفيد من التجربة التي يقررها ذلك المثل ، فيجعل

بينه وبين من يقودهم حدا دقيقا لا يتجاوزه هو بالتهاون والتساهل ، ولا يسمح لهم أن يتجاوزوه بالتجرؤ والتطاول ، وبذلك تبقى لكل من الفريقين حدوده التى لا يتعداها ، وحقوقه التي ينبغي أن تراعى . وهكذا نرى عبارة المثل على إيجازها وتركُزِها قد أعطتنا معنى كبيرا وفائدة عظيمة تفيدنا في مختلف شئون حياتنا .

وقالوا في أمثالهم :

(ليس عليكَ نَسْجُهُ فاسْحَبْ وَجُرّ)   " المستقصى ٢/ ٣٠٦ " .

ومعنى المثل ودلالته مأخوذ من استعارة أحدهم ثوب غيره وعدم حفاظه على ما استعار ، فيقال له ذلك ، أي إنك لم تتعب في غزل الثوب ولا نسجه وحياكته ....، ومن ثم كان فقدان الإحساس بقيمة ما بُذل فيه من جهد ، وما تطلبه من عناء . وهو يضرب لمن لا يشعر بقيمة ما هو فيه من نعمة لأنه لم يتعب في تحصيلها . وهي ظاهرة مألوفة في حياتنا نعايشها ونشكو ويلاتها ، ولعلها تبدو أكثر وضوحا في مسلك كثيرين من أبناء الموسرين ممن نشأوا متقلبين في أفياء العز والنعمة ، فتجد أكثرهم ـ إلا من هدى الله ـ يُتْلِفون ويخربون غير عابئين بما يصنعون ؛ لأنهم لم يتعبوا فيُ تحصيل الثروة التي ينعمون بخيراتها ، ولم يشعروا بالحرمان الذي تنصهر على لهيبه أدران البطر والأشر .

ويستفيد العاقل المتأمل من هذا المثل حكمة صائبة خلاصتها أن من طبيعة الإنسان أنه لا يشعر بقيمة الشيء وأهميته إلا إذا كابد في تحصيله ، وبذل الجهد والعرق للحصول عليه ، ومن ثم لزم أن نربي أبناءنا على تقدير جهد المجتهدين ، ونلتمس لهم الأعمال والمشاركات التي تبعدهم عن التبطُل والفراغ ، وأن نحبب إليهم

الجهد المثمر ، والعمل النافع ، ونُبغِّض إليهم التواكل ، والعيش على عرق الآخرين. وقريب من معنى هذا المثل ومغزاه المثل الآخر :

(كَثُرَ الحَلَبَةُ وقَلَّ الرِّعاء)   " مجمع الأمثال ٣/ ٣٢ " .

فهو يقال في تسفيه المتبطلين الذين يعيشون عالة على جهد غيرهم ، وهو مستوحى من بيئة العرب ، وطبيعة حياتهم التي تعتمد على رعي الإبل ، والانتفاع بألبانها ولحومها وأصوافها ، فقائل هذا المثل في أول الأمر يظهر استياءه وسخريته من ذلك السلوك : سلوك الانتهازيين الذين يختفون عند بذل الجهد ، ويتكالبون عند اجتناء الثمر.

ولا ريب في أن فحوى هذا المثل تنطبق على كثير من قطاعات المجتمع في حياتنا الحاضرة ؛ إذ يعيش كثيرون في مؤسسات الدولة وهيئاتها بل وعلى مستوى الأسر الصغيرة عالة على معاناة قلة قليلة تعمل وتنتج ويسبقها ــ وبالأسف ــ عند الانتفاع الانتهازيون الذين لا همَّ لهم إلا التفنن في اصطياد المكافآت والحوافز والمنافع العديدة ، وربما استأثروا بها دون العاملين الباذلين !! .

• • •

أما النوعية الأخرى من أمثالنا الموروثة التي تصور حسن الاستفادة من المواقف ، وعدم تضييع الفرص حتى ولو لم تحقق المأمول كله ــ فهي أيضا كثيرة مستفيضة ، يمتلىء القارىء عجبا من دلالتها على ذكاء العربي وحسن سياسته ، واستغلاله الموقف لصالحه ، واحتياله للأمور ، وعدم تسرعه أو يأسه .... ، إلى غير ذلك من الصفات السوية ، والسلوك المحمودة عواقبه ، مما يفتقده كثيرون منا في حياتنا الحاضرة ، ونعاني بسبب تضييعنا له أفرادا ومجتمعات .

وهذه شواهد لبعض تلك النوعية من الأمثال :

قالـوا :

(إلاّ حَـظيَّـة فـلا أليَّـة)　　　" فصل المقال /١٩٧ " .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في تفسيره : " إن أخـطـأتَ الحظوة فيمـا تطـالب بـه فلا تأل أن تتودد إلى الناس وتداريهم ؛ لعلك تدرك بعض ما تـريد ... ، وأصـل هـذا في المرأة تصلف عند زوجها فلا تحظى . يقول فلا ينبغي لها أن تعينه على سوء رأيه فيها فتهلك ، ولكن تَحَبَّبُ إليه بما أمكنها " .

فالمثل قد قيل في الأصل لامرأة كانت تعاني الإعراض والإهمال من زوجهـا ، فقال لها ذلك الناصح مقالته تلك " إلا حظيـة فـلا أليـة " والحظيـة ، من الحظـوة بعنى القرب والمحبة ، والألية بمعنى التقصير : أي إن لـم تكونـي ذات حظـوة ومحبـة من زوجك فلا تقصري في رعاية حقه وأداء ما عليك من واجبات قِبَلَـهُ كما هـو الشـأن لدى الآخريات ؛ فربما دفعه عدم تـقصيرك إلى أن يراجع نفسه في مسـلكه منـك ، أو على الأقل أعطى لك من الحقوق ما يبقي على الصلة التي بينكمـا بـدل أن تنهـار مـن أساسها .

ولا ريب أنها حكمة تدل على بعد نظر وحسن استفادة من الموقف المتـاح ، وعدم اليأس إذا لم تـتحقق الأهداف كلها أن ينال الإنسان بعضها . ولو طبقنا هذا المبدأ في كثير من شئون حياتنا لأفدنا إفـادات شتى ، ولتحقق لنا بالقليل الممكن مـا قـد يستعصي علينا بلوغه من الكثير غير المتاح .

وجاء في أمثالهم أيضا قولهم :

(أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكْيَسُ)   " المستقصى ١ / ٣٧٠ " .

أي لأن تكون معك بقية ماء تصل بها إلى موضع موجود به الماء أفضل وأدل على حسن التصرف وبعد النظر من أن تفرط في الأمر وتتهاون في أخذ الحيطة والاحتراس من فقدان الماء اتكالا على أنك ستلقى ما يكفي حاجتك ، أو تكاسلا عن حمل ما يكفيك في سفرك استثقالا له ، فتعدم وجود الماء ، فتعرض نفسك للمعاناة ، وربما التلف بسبب ذلك الإهمال .

وواضح أن العبرة التي نستفيدها من ذلك المثل لا تقتصر على معناه المحدود وإنما تتعدى ذلك إلى سائر ما يشبه تلك الحال في حياة الإنسان مما يتطلب حذرا واحتياطا وعدم تفريط وتضييع .

ومن هذا القبيل قولهم :

(إنْ لم تَغْلبْ فاخْلِبْ)   " المستقصى ١ / ٣٧٥ " .

أي إن استعصى عليك أن تغلب عدوك فخادعه بُغْيَةَ الظفر به في مواجهة أخرى ، وحكى الزمخشريّ في شرحه لهذا المثل جواز أن يكونَ معنى كلمة " أخلب " مأخوذا من مخلب الطائر ، فيكون المعنى على ذلك : إنْ لم تواتك الفرصة بقهر عدوك والفتك به فاختطف منه شيئا بعد شيء كما يفعل الطائر بمخلبه !

أي اعمل على إضعاف قوته مرة بعد مرة حتى تصل من ذلك إلى ما تريد .

وفي المثل كما يتضح من استعراض دلالته اللغوية دعوة إلى التوصل للمراد بالحيلة عند إعواز القوة والغلبة .

وقالوا أيضا :

(ليس مِنَ القُوَّة التورُّط في الهُوَّة)   " المستقصى ٢/ ٣٠٨ " .

أي ليس من شجاعة المرء أن يقحم نفسه في المخاطر ، إنما هي لمن يحتال لتخليصها إذا أوشكت أن تقع في المهلكة . وهو يدل على حسن السياسة وبعد النظر اللذين ينبغي أن يتحلى بهما الإنسان حتى لا يورط نفسه في مواقف يستعصي عليه الإفلات من عواقبها الضارة ، ولا ريب أن التهور والاندفاع وافتقاد الروية في تقدير الأمور يكون مجلبة لسوء العاقبة ، وقد يعرض من يعالج أموره بذلك المسلك إلى أن يندم حين لا ينفع الندم .

* * *

وهكذا أطلعتنا تلك الإلمامة التى ألقينا فيها الضوء على بعض ظواهر ودلالات أمثالنا العربية الموروثة على فيض من الفكر النابه والرأي السديد ، كما أوضحت لنا جانبا من خصائص الإنسان العربي في التعبير عن فكره الدقيق المبني على طبع يؤثر الكلمة الدالة والعبارة الموجزة ، ويرسل أقواله حافلة بالتصوير المعبر ، والتلميح البارع ، وقد يجعل عبارته تقطر سخرية وتهكما إذا كان المعنى التي تعبر عنه أو الموقف الذي تحكيه يقتضي ذلك .

وحسبنا من هذه الإلمامة أنها طوفت بنا عبر بستان ناضر من دوحة الأدب العربي الحافلة بالجمال والبهاء .

الاختيار الثاني

من النثر الفني القديم ـ تصوير الجاحظ لطبائع البخلاء

تمهيد :

يعد كتاب " البخلاء " لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ من أمتع المؤلفات التي ظهرت في أدبنا العربي في العصر العباسي ، وهو دليل ماثل على مدى ما بلغته الكتابة الفنية في ذلك العصر من رقي ، ومقدار تطويع الكُتَّاب لأساليبها للتعبير عن دقائق الفكر وظواهر المجتمع ، ونوازع النفوس ، بل وما تكنه الجوانح أحيانا ويحاول صاحبه إخفاءه عن الآخرين ، ولكنْ يشي به قوله أو سلوكه من حيث لا يدري ، فيعبر عنه الأديب ويرسمه للناس في عبارة دقيقة وبيان أخَّاذ . ومن تلك الكتابات كتاب البخلاء الذي نستعرض في هذا الاختيار بعض ملامح أسلوبه .

فمن يكون الجاحظ ؟ .

وما شأن كتابه البخلاء ، وما ميزات نثره الفني في هذا الكتاب ؟ .

الجاحظ :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، ولد ونشأ بالبصرة سنة ١٦٠ هـ على جهة التقريب ، وعُمِّر حتى سنة ٢٥٥هـ . ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي نتوئهما .

كان الجاحظ من خيرة مثقفي عصره ، بل كان موسوعة حوى عقله كثيرا من المعارف والثقافات التي أتيحت له ، سواء ما كان منها متصلا بلغة العرب وتاريخهم

وأدبهم وعوائدهم ومعارفهم وأخبارهم أم ما كان متاحا من معارف وثقافات الأمم الأخرى التي اتصلت بالعرب في تلك العهود من الفرس والروم والهنود وغيرهم ، كما كان الجاحظ متعمقا في معرفة علم الكلام والفلسفة ، وكان معتزلي المذهب ، منظرا من منظّريهم ، حتى إنه كوّن مذهبا خاصا به كان له أتباع يوافقونه عليه عرفوا بـ" الجاحظية " نسبة إليه .

وللجاحظ مؤلفات عديدة أثرى بها المكتبة العربية ، وهي وإن ضاع أكثرها فيما ضاع من تراث العرب الفكري فإن ما بقي من مؤلفاته ينهض شاهدا قويا على سموّ مكانته العلمية ، وعظم الدور الذي لعبه في التعبير عن مشكلات عصره ، وقضايا الفكر والأدب في زمانه . ومن أبرز ما بقي من مؤلفاته : " البيان والتبيين " ، و" الحيوان " و " البخلاء " و " ومجموعة الرسائل " ... ، وهي من الشهرة بحيث لا تحتاج منا إلى أن نطيل الحديث عن موضوعاتها وبيان قيمتها العلمية .

أما كتاب " البخلاء " فهو من أنفس كتبه وأحفلها بالأسلوب التصويري المعبر ، وإذا كان الجاحظ في مؤلفاته الأخرى يلزم نهج العلماء في تحقيق القضايا وتمحيص المسائل بحسبانه يعالج أمورا جادة ، ويتناول مسائل عقدية وفكرية لها أهميتها ـ فإنه في كتاب البخلاء وجد نفسه يعالج ظاهرة من ظواهر النفس الإنسانية ، ويعرض أحوال البخلاء والمُمْسِكين والطفيليين ويحكي طرائفهم وأخبارهم ؛ فأطلق لملكته الأدبية العنان لتبتكر وتبدع بعيدا عن قيود العلم وتمحيصاته . ومن ثم تظهر في كتاب البخلاء قدرة الجاحظ على حبك القصص ، وحسن عرضها ، وإبرازها في قالب مُشوّق .

لقد رسم الجاحظ في الكتاب الذي نعرض له صوراً دقيقة لطبائع البخلاء ومنازعهم ، واستطاع أن يحلل ظاهرة البخل تحليلا مستوعبا ، كما استبطن انعكاسات تلك النقيصة على سلوك من تتمكن من نفوسهم استبطانا عجيبا ، بحيث غدا من اليسير

عليه بعد ذلك التحليل والاستبطان أن يدل القارئ لكتابه على الملامح المميزة لكل فئة منهم .

وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ عالج البحث في طبائع البخلاء وطرائفهم وغريب أطوارهم بمنطق العالم المتصف ؛ فلم يقف ممن حكى أخبارهم وحججهم موقف العداء ، ولم يكن من غاياته أن يشنع عليهم ، أو يجاوز الحد في تصويره لهم ، بل كان يتعاطف معهم في بعض الأحيان بحسبان بخلهم هذا شيئا مركوزا في أصل طباعهم لا يجدون عنه متحوّلا ، ومما يؤكد ذلك ما نراه في ثنايا أقاصيصه التي يرويها عنهم من ثناء على بعضهم ، أو نعتهم بنعوت تدل على الإقرار لهم بالفضل .

وبخلاء الجاحظ ليسوا صنفا واحدا ، بل هم أصناف شتى وطوائف متنوعة ؛ فمنهم من لا يبالي بنعت الناس له بالبخل ، بل يُؤثر ذلك ويستريح لـه ، ويسرُّه أن يشيع عنه ذلك للقاصي والداني . ومنهم من يتحاشى هذا النعت ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مبالغا في إخفاء بخله . ومنهم من يحتج للإمساك بالمال عن المتبطلين ، ويرى ذلك إصلاحا لهم ، وحثا لهم على الكدح والسعي في الحياة بدل أن يبقوا عالة على غيرهم .

وهكذا جعل الجاحظ كتابه البخلاء معرضا للرأي والرأي الآخر ، ولم يخله من المتعة والحيوية اللذين يلزمان احتجاج كل فريق لرأيه وتفنيد زعم خصمه .

بنى الجاحظ كتابه " البخلاء " على طرائف وأخبار تحكي قصص عَددٍ ممن وصموا بالبخل ، واشتهروا به ، وأغلبهم من معاصريه ، من أمثال : سهل بن هارون ، وأحمد بن خلف ، وخالد بن يزيد ، والحزامي والحارثي والكندي ، ومحمد بن أبي المؤمل ، وتمام بن جعفر ... ، وغير من ذكرنا كثير .

وبإمكاننا أن نؤكد أن الجاحظ في كتابه " البخلاء " قد تتبع ظاهرة البخل بحسبانها طبعا في تكوين بعض الناس ، وحللها تحليلا دقيقا ، دون أن يتخذها سببا في التشهير أو

الصدور عن رغبة في الانتقام ، أو تنفيسا عن عداوة كامنة ، كما كان شأن من سبقوه في حكاية طرائف البخلاء ، ولكن الجاحظ عرض أخبار البخلاء وأقوالهم في حيدة العالم وموضوعية الباحث المحقق الذي يعرض الظاهرة ويحللها ويستنبط دلالاتها ، بعيدا عن الضغينة والهوى ، وانطلاقا من الرغبة في تقرير الحقيقة دون تزيُّد أو افتئات .

وبإمكاننا كذلك أن نؤكد أن الجاحظ لم يكد يترك من طوائف البخلاء ونوعياتهم ونوازعهم شيئا دون أن يكشف للقاريء أمره ، ويدله عليه ؛ فبخلاؤه أنماط شتى تتنوع بتنوع طبائعهم ومنازعهم في واقع الحياة : فمنهم الموسرون وكبار التجار ، ومنهم المقلون الذين يحرصون على القليل الذي يصل إلى أيديهم ، ومنهم من هم من أوساط الناس أو دهمائهم ومنهم أهل الفكر والعلم والثقافة وهم الذين سماهم الجاحظ " متعاقلي البخلاء " ، ومع هذا التتبع من الجاحظ لطوائف البخلاء ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية حرص على بيان أنماط بخلهم وطبيعة شحهم ؛ فمنهم من يبخل على نفسه وعلى الآخرين ، ومنهم من يوسع على نفسه ويبخل على أهله وولده ، ومنهم من يداري نزعة البخل عنده ويجتهد في اخفائها ، ومنهم من يجاهر بها ولا يعبأ بلوم اللائمين ، بل منهم من يحتج للبخل ويدافع عن مسلك البخلاء .

وهكذا لم يدع الجاحظ من أمر تلك الظاهرة دقيقا ولا جليلا إلا سلط عليه الأضواء وحلل أسبابه ودواعيه ، ورصد تأثيره ونتائجه . وحرص الجاحظ مع ذلك كله على واقعية الحوار في قصص البخلاء كما حرص على حسن عرضها ، وأعمل فكره وأسلوبه في سرد تلك القصص مما أشاع فيها جوا من التشويق والتأثير ؛ لأنها مثلت بيئتها وعصرها وأبطالها أصدق تمثيل . وهي مع هذه الدقة في تمثيل العصر والبيئة لم تخل من البعد الإنساني العام ؛ لأنهاعبرت عن نوازع مركوزة في أصل الطبيعة الإنسانية لدي الأشحاء الممسكين ، وهؤلاء لا يخلو منهم عصر ، ولا يعدمهم زمان ، ولا يفتقدهم مجتمع على اختلاف العصور والبيئات ، وتنوع الأمم والشعوب .

الجاحظ وواقعية الأداء :

حرص الجاحظ ـ كما ألمحنا ـ على إضفاء طابع الواقعية على حكاياته عن البخلاء وبدت تلك الواقعية أكمل ما تكون في عدة جوانب عني بها الجاحظ ونبه عليها ووضعها في حسبانه من أهمها :

١- واقعية اللغة : ونعني بها مراعاة أبي عثمان لواقعية الأسلوب في حكاياته وطرائفه عامة ، ومن ثم في حكاية طرائف البخلاء على جهة الخصوص .

والذي يلفت النظر أن الجاحظ كان مدركا لأهمية هذه الواقعية ودورها في إبراز مضمون الطرفة أو الحكاية ، وإعجاب القاريء والسامع بها إذا راعى فيها حاكيها هذا النهج ، وضعفها وفتورها وعدم التأثر بها إذا خلت من تلك الواقعية . وقد نبه الجاحظ على ذلك في مقدمة كتاب البخلاء بقوله :

" وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغِّضُ هذا الباب ويخرجه من حده ، إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كـ [سهل بن هارون] وأشباهه " (١)

٢- واقعية المضمون : ونعني بها أن الجاحظ كان حريصا على ألا يثبت في حكايات بخلائه إلا ما عرف في الواقع ولمسه الناس ، وتواترت به الأخبار ، أما ماكان من

---

(١) البخلاء / ٤٠ .

قبيل التزيد والمبالغة فكان الجاحظ يتوقف عنده ، وربما ذكره ليبين جهة المبالغة فيه . مثل ما علق به عما حكوه عن بخل أهل االمازح والمديبر(١) من أن خشكنانهم من دقيق شعير ، وحشوه الذي يكون فيه من الجوز والسكر من دقيق خشكار(٢) . ويعلق الجاحظ على ذلك الخبر بقوله :

" وأهل المازح لا يعرفون بالبخل ، ولكنهم اسوأ الناس حالا ، فتقديرهم على قدر عيشهم . وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب ، أما من يضيّق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم " (٣)

٣- واقعية التصوير : وأعني بها براعة الجاحظ في إبراز بخلائه من خلال تصويره لهم على نحو واقعي دقيق ، يجعلهم متوائمين مع بيئتهم وما تواضعت عليه مجتمعاتهم ، من موروثات وعادات وأعراف ، وما شاع في أوساطهم من قناعات ومعتقدات .

ولنتأمل هذه الحكاية التي يصور بها الجاحظ بخل شيخ من أهل خراسان عرف بالإمساك الشديد والتقتير المبالغ فيه ، يقول عنه الجاحظ :

" كان لا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد منه . غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلا فيه جرذقتان ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرةٌ فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان ، وأربع بيضات ليس منها بدٌّ ، ومعه خلال ، ومضى وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ (٤) ، وينظر موضعا تحت

---

(١) (وهما موضعان قرب الرقة) .

(٢) الخشكنان : نوع من الكعك ، قريب مما يسمى لعهدنا (البسكويت) . ومعناه بالفارسية الخبز الجاف . والخشكار : ما لا لب له من الشعير . (٣) البخلاء / ١٢٢ .

(٤) السكباج : لحم يطبخ بخلٍّ ، والأشنان : نبات تغسل به الثياب والأيدي . الكرخ : محلة ببغداد على الساحل الغربي من دجلة . .

شجرة وسط خضرة وماء جار ، فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة ، فإن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني بهذا رطبا إن كان في زمان الرطب ، أو عنبا إن كان في زمان العنب ...فإن أتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء أتي به ، ثم تخلل وغسل يديه ، ثم تمشى مقدار مائة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة . ثم ينتبه فيغتسل ويمضي إلى المسجد . هذا كان دأبه في كل جمعة " (١).

فلننظر كيف وصف الجاحظ سلوك ذلك الخراساني البخيل حتى كأن القارىء يرى صنيعه أمام ناظريه ، وهذا لم يتأت له إلا بدقة التصوير وواقعيته ، وحرصه على أن يرسم للقارىء كل جوانب الموقف بتفصيلاته الدقيقة التي لم تدع من فعل الرجل شيئا إلا بينته وأبرزته ، ولا ريب أن الفضل في ذلك يعود لمهارة الجاحظ التعبيرية التي جعلته ينقل للقارىء الموقف برمته ، دون أن يغفل من جزئياته شيئا .

نماذج من طرائف البخلاء :

أشرنا فيما تقدم إلى أن بخلاء الجاحظ الذين صورهم في كتابه كانوا أنماطا شتى ، منهم الموسون الأشحاء بمالهم الوفير ، ومنهم المقلون الذين يحرصون على ما بأيديهم ولا يفرطون في شيء منه ، ومنهم العقلاء من أهل العلم والفقه والثقافة ، ومنهم التجار وأرباب الحرف والصنائع ، ومنهم الدهماء ومن هم من عامة الناس . كذلك لم يخل كتاب البخلاء من حكاية غرائب أخبار البخلاء مثل البلاد التي اشتهر أهلها بالبخل حتى صار سمة عامة من سماتهم .

---

(١) البخلاء / ٢٤، ٢٥ .

ونعرض فيما يلي نماذج من تلك الطرائف :

أولا : من طرائف بخل أهل مرو :

= ما حكاه الجاحظ عن " ثمامة " قال : لم أر الديك في بلدة قطُّ إلا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدَّام الدجاجة إلا ديكة مرو ، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبِّ !!. قال : فعلمت أنَّ بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء ، فمن ثم عمَّ جميع حيوانهم .

= قال أحمد بن رشيد : كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له إما عابثا وإما ممتحنا : أطعمني من خبزكم . قال : لا تريده ؛ هو مرّ ! ، فقلت : فاسقني من مائكم . قال : لا تريده ؛ هو مالح ! . قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريده . هو كذا وكذا !! . إلى أن عددت أصنافا كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغِّضه إليّ !!. فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا ؟ هذا مَنْ علَّمه ما تسمع ؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم .

= ومن أعاجيب أهل مرو ما ذكروه من : أنّ رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتّجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته(١) . ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقيّ : ليت أنِّي قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تُجدد لي من البِرّ في كل قَدْمة . فأما ههنا فقد أغناك الله عني .

قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما

---

(١) المؤنة : ما يحتاج إليه .

هوّن عليه مكابدة السفر ووحشة الاغتراب مكان (١) المروزيّ هنالك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ؛ ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه . فلما وجده قاعدا في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط (٢) . قال العراقي في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان القناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر . فقال لعله أن يكون إنما أُتِيَ من قِبَلِ العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدد مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكارا . قال : فلعله إمنا أتي من قبل القلنسوة . وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل فقال : لو خرجتَ من جِلْدِكَ لم أعرفك !!.

ثانيا : من طرائف البخل في الإتفاق :

= كان أبو يعقوب الذقنان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال . وكان إذا كان يومُ الجمعةَ اشترى لحم بقر بدرهم ، واشترى بصلا بدانق ، وقرعة بدانق ، ، فإذا كان أيام الجزر فجزرا بدانق ، فطبخه كله سكباجا . فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر وما ينقطع في القدر من البصل والباذنجان والجزر والقرع والشحم واللحم . فإذا كان يوم السبت ثـرّدوا خبزهم في المرق (٤). فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل . فإذا كان يوم الإثنين أكلوا الجزر . فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع . فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذنجان . فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم . فلهذاكان يقول : ما فاتني اللحم منذ ملكت المال !.

---

(١)مكان : مصدر ميمي من كان أي كَوْنُ . (٢) أثبته : عرفه . ولا سأل به : أي ولا سأل عنه ، وكثيرا ما تأتي كذلك بعد السؤال ، ومنه قوله عز وجل :" فاسأل به خبيرا " .

(٣) البخلاء / ١٢١، ١٢٢ . (٤) الدانق : سدس الدرهم . ما ينقطع في القدر : ما يتفرق على وجه المرق .ثردوا : أي صنعوا ثريدا وهو الخبز المفتوت .

= حكى الجاحظ عن المصريّ وكان جار الداردريش قال : كان الداردريشي موسرا ، وكان ماله لا يحصى ..... ، وكان أخوه شريكه في كل شيء ، وكان في البخل مثله ، فوضع أخوه في يوم جمعة بين أيدينا ـ ونحن على بابه ـ طبق رطب يساوي بالبصرة دانقين ، فبينما نحن نأكل إذ جاء أخوه فلم يسلم ولم يتكلم حتى دخل الدار . فأنكرنا ذلك ، وكان يفرط في إظهار البِشْرَ ، ويجعل البشر وقاية دون ماله . قال : ولم نعرف علته ، ولم يعرفها أخوه .

فلما كان في الجمعة الأخرى ، دعا أيضا أخوه بطبق رطب ، فبينا نحن نأكل إذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف ، فأنكرنا ذلك ولم ندر ما قصته . فلما أن كان في الجمعة الثالثة ورأى مثل ذلك كتب إلى أخيه : " يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن أن يخرج ولدي وولدك إلى مكروه . وها هنا أموال باسمي ولك شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها ، وصامت في منزلي وصامت في منزلك (١) ، ولا نعرف فضل بعض ذلك على بعض . وإن طرقنا أمر الله ما ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالرأي أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب " .

فلما قرأ أخوه كتابه تعاظمه ذلك وهاله . وقلب الرأي ظهرا لبطن ، فلم يزده التقليب إلا جهلا . فجمع ولده وغلّظ عليهم ، وقال : " عسى أن يكون أحدٌ منكم قد أخطأ ولو بكلمة واحدة ، أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء " . فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى إليه حافيا راجلا فقال : " ما يدعوك إلى القسمة والتمييز ؟ ادع صلحاء أهل المسجد الساعة ؛ حتى أشهدهم بأني وكيلٌ لكَ في هذه الضياع . وحول كل شيء في منزلي إلى منزلك ! وجَرِّبْ ذلك مني الساعة فإن وجدتني أروغ وأعتلّ فدونك (٢).

---

(١) الصامت من المال : الذهب والفضة .

(٢) أي إن رأيت أني أحيد عن النزول لك عما أملك ، أو أتكلف العلل للرجوع عن ذلك ، فدونك ما تريد : أي فاشرع فيما عزمت عليه من القسمة ، وتخصيص كل منا بنصيبه.

فحاجتي الآن أن تخبرني بذنبي " . قال : " ما لك من ذنب ، وما من القسمة بُدّ !!" . فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار ، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل ، يناشده ويطلب إليه .

فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد قال له : " حدثني عن وضعك أطباق الرطب وبسطك الحصر في السكك ، وإحضارك الماء البارد ، وجمعك الناس على بابي في كل جمعة ، كأنك ظننت أنّا كُنّا عن هذه المكرمة عُمْيا . إنك إن أطعمتهم اليوم البرني أطعمتهم غدا السكر ، وبعد غد الهلباثا (١) . ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع في سائر أيام الأسبوع ، ثم يتحول الرطب إلى الغداء ، ثم يؤدي الغداء إلى العشاء . ثم تصير إلى الكساء ثم الأجداء ثم الحملان ثم اصطناع الصنائع . والله إني لأرثي لبيوت الأموال ولخراج المملكة من هذا !! . فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف ؟؟ . قال : جعلت فداك . تريد ألا آكل رطبة أبدا فضلا عن غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبدا . قال : إياك أن تخطيء مرتين : مرة في إطماعهم فيك ، ومرة في اكتساب عداوتهم . اخرج من هذا الأمر علىحساب ما دخلت فيه . وتسلم تسلم " (٢) .

ثالثا: من طرائف بخلاء الحرص والجشع :

= قصة الكندي مع سكّان داره .

كان الكندي لا يزال يقول للساكن ، وربما قال للجار :

" إن في الدار امرأة بها حمل ، والوَحْمَى ربما أسقطت من ريح القِدْر الطيبة ، فإذا

---

(١) البرني والسكر والهلباثا : أنواع من الرطب أو التمر كانت مشهورة بتسمياتها تلك عندهم .

(٢) البخلاء/ ١٣٣ وما بعدها . ومعنى : تسلم تسلم : استمع نصيحتي تغنم وتنج من سوء العاقبة .

طبختم فردُوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة ، فإن النفس يردها اليسير . فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك فكفارتك إن أسقطت غرّة : عبد أو أمة ، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت قال : فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الأيام . وكان أكثرهم يفطن ويتغافل . وكان الكندي يقول لعياله : أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع ؛ إنما لكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان !!.

وقال معبد : نزلنا دار الكندي أكثر من سنة ، نروّج له الكراء ، ونقضي له الحوائج ، ونفي له بالشرط . قلت : قد فهمت ترويج الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشرط ؟ قال: في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة (١) ، وألا يلقوا عظما ، ولا يخرجوا كساحة . وأن يكون له نوى التمر ، وقشور الرمان ، والغرفة من كل قدر تطبخ للحبلى في بيته . وكان في ذلك يتنزل عليهم ، فكانوا لطيبه وإفراط بخله وحسن حديثه يحتملون ذلك .

قال معبد : فبينا أنا كذلك إذ قدم ابن عمّ لي ومعه ابنٌ له ، وإذا رقعة منه قد جاءتني : " إن كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك . وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة يجرُّ علينا الطمع في الليالي الكثيرة " . فكتبت إليه : " ليس مقامهما عندنا إلا شهرا أو نحوه " . فكتب إليّ : " إنّ دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة ، لكل رأس خمسة . فإذ قد زدت رجلين ، فلا بدّ من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين " . فكتبت إليه : " وما يضرك من مقامهما ، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمل الجبال ، وثقل مؤنتها عليّ دونك ؟! فاكتب إليّ بعذرك لأعرفه " . ولم أدر أني أهجم منه على ما هجمتُ ، وأني أقع منه فيما وقعتُ ، فكتب إليّ :

---

(١) نشوار العلوفة : ما تبقيه الدابة من العلف .

" الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهي قائمة معروفة . من ذلك : سرعة امتلاء البالوعة ، وما في تنقيتها من شدة المؤنة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشي على ظهور السطوح المطينة ، وعلى أرض البيوت المجصصة ، والصعود على الدرج الكثيرة ؛ فينقشر لذلك الطين ، وينقلع الجص ، وينكسر العتب . مع انثناء الأجذاع لكثرة الوطء ، وتكسرها لفرط الثقل . وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال تهشمت الأبواب ، وتقلعت الرزات ، وإذا كثر الصبيان وتضاعف البوش نزعت مسامير الأبواب (١) ، وقلعت كل ضبة ، ونزعت كل رزة ، وكسرت كل جوزة ؛ وحفر فيها آبار الددن ، وهشموا بلاطها بالمداحي (٢) ، هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخشب الرفوف .

وإذا كثر العيال والزوار والضيفان والندماء احتيج من صب الماء واتخاذ الحببة القاطرة ، والجرار الراشحة (٣) ، إلى أضعاف ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكل أسفله وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه ، وتداعى بنيانه ، من قطر حب ورشح جرة ، ومن فضل ماء البئر ، ومن سوء التدبير . وعلى قدر كثرتهم يحتاجون من الخبز والطبيخ ومن الوقود والتسخين . والنار لا تبقي ولا تذر . وإنما الدور حطب لها . .. فكم من حريق قد أتى على أصل الغلة . فكلفتم أهلها أغلظ النفقة . وربما كان ذلك عند غاية العسرة ، وشدة الحال . وربما تعدت تلك الجناية إلى دور الجيران ، وإلى مجاوزة الأبدان والأموال . فلو ترك الناس حينئذ رب الدار وقدر بليته ومقدار مصيبته لكان

---

(١) البوش [بفتح وسكون وبضم الباء] : الجماعة والعيال . وقيل الجماعة المختلطين.

(٢) الجوزة : يقصد بها شجرة الجوز ، وكانت تزرع لذلك العهد الأشجار في أفنية الدور. والددن : اللهو واللعب . وآبار الددن يقصد بها الحفر التي يصنعها الصغار ، وسماها آبارا على المجاز . والمداحي : العصيّ الغلاظ التي يلعب بها الصبيان . (٣) الحببة : جمع حب [بضم الحاء] وهو الخابية (الزير) ويجمع أيضا على حباب .

عسى ذلك أن يكون محتملا . ولكنهم يتشاءمون به ، ولا يزالون يستثقلون ذكره ، ويكثرون من لائمته وتعنيفه .

وبعد أن يفيض الكندي في بيان مخاطر سوء تدبير السكان مع الدور التي يسكنونها يقول :

" ثم إن كثيرا منكم يدافع بالكراء (١) ، ويماطل بالأداء حتى إذا اجتمعت أشهر عليه فرَّ وخلى أربابها جياعا ، يتندمون على ما كان من حسن تقاضيهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرهم اقتطاع حقوقهم والذهاب بأقواتهم .

ويسكنها الساكن وقد نظفناها ؛ لتحسن في عين المستأجر ؛ وليرغب فيها الناظر فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا ، لا تصلحه إلا النفقة الموجعة ، ثم لا يدع مترسا إلا سرقه ، ولا سلما إلا حمله ، ولا نقضا إلا أخذه .... ، ويدع دق الثوب والدق في الهاون والمنحاز في أرض الدار ويدق على الأجذاع والحواضن والرواشن (٢) ، وإن كانت الدار مقرمدة وبالآجرّ مفروشة ، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة ليكون الدق عليها ؛ ولتكون واقية لها دونها دعاهم التهاون والقسوة ، والغش والفسولة إلى أن يدقوا حيث جلسوا ، وألا يحفلوا بما أفسدوا .

لم يعط قط لذلك أرشا (٣) ولا استحل صاحب الدار ، ولا استغفر الله منه في السر . ثم يستكثر من نفسه في السنة إخراج عشرة دراهم ، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر . أيذكر ما يصير إلينا مع قلته ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته ؟

---

(١) يدافع بالكراء ك يماطل في أدائه . (٢) الأجذاع : جمع جذع ، ما يحمل السقف ، والحواضن: دعامات الأسقف اي التي تحمل الجذوع . والرواشن : الرفوف .

(٣) الأرش : ما يؤدى عوضا عن جناية أوإفساد .

ويقول في موضع آخر من جوابه :

" ثم إن كانت الغلة صحاحا دفع أكثرها مقطعة ، وإن كانت أنصافا وأرباعا دفعها قراضة مفتتة . ثم لا يدع مزأبقا ولا مُكحّلاً ولا زائفا ولا دينارا بهرجا إلا دسه فيه ودلسه عليه (١) ، واحتال بكل حيلة وتأتّى له بكل سبب . فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رآه قط ولا كان في ملكه . ...."

ثم يقول له في نهاية الرسالة :

" ... فهذه الخصال المذمومة كلها فيكم ، وكلها حجة عليكم ، وكلها داعية إلى تهمتكم وأخذ الحذر منكم .. ، وقد أريناكم أنّ حكم النازلين كحكم المقيمين ، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلة . ولو تغافلتُ لك يا أخا البصرة عن زيادة رجلين لم أبعدك ـ على قدر ما رأيت منك ـ أن تلزمني ذلك فيما يتبين ، حتى يصير كراء الواحد ككراء الألف ، وتصير الإقامة كالظعن ، والتفريغ كالشغل !!" .

وهكذا طوف بنا الجاحظ في حكايته موقف الكندي مع ساكني بيته إلى ألوان من المتعة ، وصنوف من الطرائف ، التي بنيت على حوار حيّ ، يجعلنا نعايش المواقف وكأنها تحدث أمام أعيننا ، بما يحيط بها من حيل ، وما يمارسه أبطالها من كيد ، وما يتراشقون به من حجج ، وما يعبر به كل منهم عن وجهته ، ويدافع به عن مسلكه .

ومحاورة الكندي لساكني منزله طويلة مشوقة ، ولكننا آثرنا الاقتصار على نبذ منها حتى لا نخرج عن سياق الاختيار الذي رسمناه لأنفسنا في هذا الكتاب .

* * *

---

(١) المزأبق : الدرهم المطليّ بالزئبق للتمويه على معدنه الرديء . والمكحل : ما وضع عليه شيء من السواد لإخفاء زيفه . والبهرج : الذهب الرديء .

الاختيار الثالث

من عيون الشعر العربي القديم

للجميح الأسدي يعاتب زوجته ويترضّاها :

أمْستْ أُمامةُ صَمْتًا ما تُكَلِّمُنا مجنونةٌ أمْ أحَسَّتْ أهْلَ خَرُّوبِ
مَرَّتْ براكبٍ مَلْهُوزٍ فقال لها ضُرِّي الجُمَيْحَ ومُسِّيهِ بتعْذيبِ
ولو أصابتْ لقالتْ وهْيَ صادقةٌ إنَّ الرياضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشِّيبِ
يَأْبَى الذكاءُ ويأبَى أنَّ شيْخَكُمُ لَنْ يُعْطِيَ اليومَ عنْ ضَرْبٍ وتأْديبِ
أمَّا إذا حَرَدَتْ حَرْدِي فَمُجْرِيَةٌ جَرْدَاءُ تَمْنَعُ غِيلاً غَيْرَ مَقْرُوبِ
وإنْ يَكُنْ حادثٌ يُخْشَى فَذُو عِلَقٍ تَظَلُّ تَزْبُرُهُ مِنْ خشيةِ الذِّيبِ
فإنْ يكُنْ أهْلُها حلُّوا على قِصَةٍ فإنَّ أهْلِي الأُولَى حلُّوا بِمَلْحُوبِ
لمَّا رأتْ إبلي قلَّتْ حَلُوبَتُها وكُلُّ عامٍ عليها عامُ تَجْنِيبِ
أبْقَى الحوادثُ منها وَهي تَتْبَعُها والحقُّ صِيرْمَةَ راعٍ غيرِ مَغْلُوبِ
كأنَّ راعِيَنا يَحْدُو بها حُمُرا بين الأبارقِ مِنْ مكْرانَ فاللُّوبِ
فإنْ تَقَرِّي بنا عَيْناً وتَخْتَفِضِي فينا وتَنْتَظِري كَرِّي وتَغْرِيبِي
فاقْنَيْ لَعَلَّكِ أنْ تَحْظَيْ وتَحْتَلِبِي في سَحْبَلٍ مِنْ مُسُوكِ الضأْنِ مَنْجُوبِ

المعنى العام للأبيات :

عاد الجميح من عمله ذات مساء ، فوجد زوجته " أمامة " غاضبة صامتة ، وحاول أن يفتح معها حديثا أو يديرحوارا ولكنها ظلت على صمتها وتجاهلها إياه ، فسرت في نفسه الوساوس ، وجعل يسائل نفسه عن سبب غضبها وتغيرها ، أأصابها مس من جنون ، أم أوغر أحد صدرها عليه ، وظل يستعرض الاحتمالات قائلا لنفسه : " لا بد أن بعض قرابتها قد قابلها في غيبته وملأ قلبها ضغنا عليه ، موصيا إياها بأن تذيق الجميح هذا صنوف العذاب ، وتنغص عليه حياته ..."

ثم يستعيد الجميح شجاعة قلبه ، وكبرياء نفسه ، فيعلن ثورته على ما تحيكه له تلك الزوجة الغريرة ، ويسخر من تصورها أنها تستطيع أن تنال من شخصه ، أو ترغمه على ما تريد أو يريده له الكائدون ، ويستطرد في حكاية خواطره المهتاجة حاكيا تحليله لموقف زوجته وخيبة رجائها فيقول :

لو أن تلك المرأة تتصف بالعقل وقليل من بعد النظر لأدركت أنها لن تبلغ من أمري ما تريد ، ولن تحقق ما تتمنى ؛ لأن من كان مثلها في نقصها وهوان أمرها لن يرغم شيخا مجربا مثل الجميح ، ولو قدّرت ذلك لكان عليها أن توضح لمن يستعديها على زوجها أن مثله لا يراض ولا يذلل ، بعد أن حنكته التجارب ، وحلب الدهر أشطره .

ثم يرسم الشاعر صورة بالغة الغاية في الزراية على زوجته " أمامة " والتهوين من شأنها فيشبهها في حال غضبها عليه ورغبتها في تعكير صفوه بأنثى الأسد " اللبؤة " الشرسة التي تحمي غيلا فيه صغار لها ، فلا يجترىء أحد على الاقتراب منه ، وفي مقابل ذلك التشبيه تشبيه آخر لها في حال ضعفها وخوفها من أمر مخوف بحال الصبي الصغير الذي إن سمع صوت الذئب أو أخبر باقترابه فزع وارتعدت فرائصه وزاد صراخه واضطرابه حتى لا يجد من يهدىء من روعه بدا من زجره أو ضربه ليثبت ويكف عن

الصياح ......، وهما تشبيهان بارعان استطاع الجميح باصطناعهما تصوير طبيعة زوجته النفسية وسلوكها العجيب ! .

ثم يتابع الشاعر في قصيدته الواقعية المصورة للمشاعر والخواطر التي تتوارد على نفس الرجل عندما يكون مغاضبا لزوجته ـ الحملة على أمامة والحط من غلوائها ، في محاولة منه للتنفيس عن غيظه والتطاول على كبريائه فيقول لها :

علام تتكبرين ؟ وبأي شيء تفاخرين وتشمخين ؟؟ إن أهلي ليسوا أقل شأنا من أهلك ، ولا موطنهم بأدنى منزلة من موطنكم . فعلام التكبر ؟ ولم التعالي ؟ .

ثم يعود بنا الجميح إلى أساس الخلاف وبواعثه ، فيذكر أن " أمامة " تنكرت له لما قلّ ماله ، وساءت حاله ، وتناقصت ثروته ، وإذا كانت أموال العرب وثرواتهم إنما تقدر بما يملكون من إبل وغنم فقد جعل الشاعر قلة حلوبة إبله دليلا على ذلك ، ثم بين في هذا السياق أن اختلال حاله وقله أمواله لم ينتج عن سفه أو قعود عن السعي والكسب ، ولكنه نتج عن كثرة الأعباء والمسئوليات ، وأنه رجل كريم جواد اشتهر بذلك في قومه وعشيرته ، فكان محط آمال المحتاجين ، وملاذ المنكوبين ، فلم يضع المال إذاً في عبث أو باطل ، بل أنفق في وجوهه ، وأديت به الحقوق ، وبذل في الواجبات ، فهو أحرى أن يكون مدعاة للثناء عليه وليس اللوم والتعنيف .

وهو في أثناء حديثه عن قلة ماله يدفعه إنصافه وصراحته وشجاعته في تقرير الواقع حتى لو كان في غير صالحه أن يعترف بضآلة إبله وهزالها وهوان شأنها .

وفي ختام القصيدة يُمَنِّي الجميح زوجته الأماني ، ويدعوها إلى أن تصبر على ضيق ذات يده حتى يتيسر حاله وينمو ماله ، ويستعيد غناه ، عندئذ سترضى صنيعه وتسعد بجهده وتهنأ بالعيش الرغيد معه .

تحليل وتعليق :

١) تخلت القصيدة عن المقدمات الدخيلة (طللية كانت أم غزلية) إذ دلف الشاعر هنا إلى موضوعه دون مقدمات ، وهذا يدلنا على أن الشعر العربي القديم لم يلتزم فيه قائلوه المقدمات التقليدية إلا في القصائد الحفلية التي يزمع إنشادها في المحافل وأمام حشد من السامعين ، أما الشعر الشخصي الذي يصور حوادث فردية أو تجارب خاصة فقد أغفل قائلوه في الأعم الغلب تلك المقدمات .

٢) تعد القصيدة دليلا على حيوية الشعر القديم ومعالجته لمشكلات الحياة وتصويره لها دون تزيد أو مبالغة ، وهي صادرة من تجربة حية نابضة لا تكلف فيها ولا تصنع ، ثم هي تصور شعور الزوج الذي تعانده زوجته وتتعمد إغضابه وتنغص عليه عيشه ، ويبدأ الخلاف في إفساد أواصر المودة بينهما ، كما تصور التماوج العاطفي بين التودد والغضب ، بين ثورة الزوج لكرامته المعتدى عليها والرغبة في استرضاء زوجته والإبقاء على ارتباطه بها . كل ذلك يتبدى لنا من القصيدة على وجازتها واكتفاء الشاعر باللمحة الدالة ، والصورة المعبرة .

٣) عرض الشاعر تجربته على صورة الحكاية ، فأخذ الأحداث من قمتها ونهاياتها ثم عاد بالسامع والقارىء إلى بداياتها وأسبابها الأولى ، فجعلها أكثر تشويقا ، وأبعث على إثارة الاهتمام لمعرفة النتائج والعواقب .

٤) لغة الشاعر جزلة دقيقة ، وضعت فيها العبارات في مواضعها فأحدثت صدى معبرا ، وإن لمس القارىء منا في بعض كلماتها غرابة فهي غرابة نسبية لبعد العهد بيننا وبين عصر الشاعر وبيئته .

ومن شواهد الدقة في اختيار العبارات إيثار الشاعر الفعل المضارع الدال على الاستمرار في قوله في البيت الأول : " .... ما تكلمنا " الذي يشعر بتعدد المحاولات التي

بذلها الجميح ليسترضي زوجته ويحملها على التحدث معه ومصارحته بجلية الأمر ولكن مَحاولاته تلك لم تثمر شيئا فكان التعبير " .. ما تكلمنا " أبلغ وأدل في هذا السياق .

ومنها كذلك استخدام صيغة التضعيف التي تشعر بالشدة والقوة في قوله في البيت الثاني : " .. ضرّي الجميح وكذلك .... مسّيه بتعذيب فالفعلان كلاهما يفيدان شدة الضرّ وشدة المسّ . وهذا الملحظ ينطبق على الفعل ".. تخنفضي " في البيت الحادي عشر والفعل "..تحتلبي " في البيت الثاني عشر ؛ فهما يدلان على شدة العلاج الذي يرمز إلى المطالبة بالصبر في الفعل " تخنفضي " وكثرة المحلوب في الفعل " تحتلبي " كما توحي كلمة " سحبل " في البيت الأخير بعظم الحجم والضخامة .

٥) صور القصيدة مستوحاة من البيئة العربية في العصر الجاهلي ومعانيها ودلالاتها متوائمة مع قيم تلك البيئة ومثالياتها ، وفي ذلك دليل على أن الشعر الجاهلي صور حياة قائليه الاجتماعية والأخلاقية ، كما صور عاداتهم وأعرافهم وما اضطربت به حياتهم .

٦) في القصيدة من صور التعبير المؤثر ألوان عديدة منها : اللهجة الساخرة التي علق بها الشاعر على سلوك زوجته ومحاولتها تطويعه لما تريد ويريد أهلها ، كما تكثر فيها التعبيرات الكنائية من مثل قوله : يأبى الذكاء ويأبى أن شيخكم ..، ومنها : تصوير زوجته في حال الثورة والغضب باللبؤة ذات الجراء ، وفي حال الفزع والخوف بالصبي الخائف المذعور .. وهو من التشبيه البليغ ، ومنها صورة إبله بعد أن ساء حالها وبدا هزالها وضعفها .

٧) تدل القصيدة على صراحة العربي ووضوحه وشجاعته في الاعتراف بالحق حتى ولو كان فيه ما يمس شخصه ؛ فلم ينكر الالشاعر فقره وضيق ذات يده ـ وهو لب خلافه مع زوجته ـ ولم يمار فيه ، بل اعترف به وعلل له ، واحتج لموقفه بأنه لم يبدد ماله في أمور تشينه ، أو تنقص من قدره ، بل أنفقه في وجوه المعروف التي كان العربي يعتز بها مثل مواساة المحتاجين ، أو القيام بالواجبات والحقوق التي تعاهد العرب على الالتزام بها لعشائرهم ومواليهم .

تائية الشنفرى :

ألا أمُّ عمرٍو أجمعتْ فاستقلَّتِ وما ودَّعتْ جيرانها إذ تولَّتِ
وقد سبقتْنا أمُّ عمرو بأمرها وكانت بأعناق المطيِّ أظلَّتِ
بعينيَّ ما أمستْ فباتتْ فأصبحتْ فقضَّتْ أمورا فاستقلتْ فولتِ
لقد أعجبتْني لا سقوطاً قناعُها إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ
تَبيتُ بُعَيْدَ النومِ تُهدي غَبُوقَها لجاراتها إذا الهديَّةُ قلَّتِ
كأنَّ لها في الأرض نِسْياً تَقُصُّهُ على أمِّها وإنْ تُكلمْكَ تَبْلتِ
أُميمةُ لا يخزي نَثاها حليلَها إذا ذُكِرَ النسوانُ عفَّتْ وجلَّتِ
إذا هو أمْسَى آبَ قرَّةَ عينه مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلَّتِ
فَدَقَّتْ وجلَّتْ واسبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ فلو جُنَّ إنسان من الحسن جُنَّتِ
وباضِعَةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بعثْتُها ومَن يغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ
خرجنا مِنَ الوادي الذي بين مِشْعَلِ
وبين الجَبَا هيهات أنشأتُ سُرْبَتي
وأمِّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تقوتُهُمْ إذا أطعَمَتْهُمْ أوتَحَتْ وأقَلَّتِ
تخافُ علينا العيلَ إنْ هي أكثرتْ
ونحن جياعٌ أيَّ آلٍ تألَّتِ
مُصَعْلَكَةٌ لا يُقْصِرُ السِّتْرُ دونها ولا تُرْتَجَى للبيت إنْ لم تُبَيِّتِ
جزينا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قرضَها بما قدَّمَتْ أيديهمُ وأزَلَّتِ
وهُنِّيءَ بي قومٌ وما إنْ هَنَأْتُهُمْ
وأصبحتُ في قوم وليسوا بِمَنْبِتي
إذا ما أتَتْني ميتَتي لمْ أُبالِها ولمْ تَذْرِ خالاتي الدُّموعَ وعمتي

ألا لا تَعُدْنِي إنْ تشكّيْتُ خُلَّتِي   شفاني بأعلَى ذي البُرَيْقَيْنِ عَدْوتِي
وإنّي لَحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتي   ومُرٌّ إذا نفْسُ الأبيّ اسْتَمرّتِ
أبيٌّ لِمَا يأبَى سريعٌ مُباءَتِي   إلى كُلّ نفْسٍ تَنْتَحِي في مَسَرّتِي
ولَوْ لمْ أرِمْ في أهْلِ بَيْتِيَ قاعِداً
أتَتْنِي إذاً بين العمودين حُمَّتِي

تعريف بالشاعر :

الشَّنْفَرَى : شاعر جاهلي قحطاني ، ومعنى الشنفرى : عظيم الشَّفَة . أُسِر الشنفرى وهو صغير لدى بني شبابة بن فهم ، فنشأ فيهم وظل عندهم حتى فدوه بأسير من بني سلامان بن مفرج ، فعاش عندهم وهو لا يعلم من أمر نسبه شيئا إلى أن كبر وصار شابا قويا معتزا بنفسه ، ونازعته ابنة الرجل الذي نشأ في بيته وهو يظنها أخته ، فلما طلب منها أن تصب الماء على رأسه أنكرت منه ذلك ولطمته ، فذهب مغاضبا إلى الرجل الذي نشأ في حجره وكان يعدُّه أباه ، وقال له : أخبرني من أنا . فأخبره بقصته ونسبه الحقيقي ، فأقسم أن يقتل من بني سلامان مائة رجل جزاء استعبادهم له ، ثم رُحل عنهم ونزل بقوم من خصومهم ، وجعل يغير عليهم حتى قتل منهم رجالا كثيرين .

ويعد الشنفرى وتأبط شرا وسليك بن السلكة وعمرو بن براق وعروة بن الورد ... من الصعاليك الذين اشتهروا بالفتك والتلصص ، وكان دأبهم الإغارة على الأغنياء والموسرين واستياق أموالهم ، انتقاما للضعفاء والمحرومين الذين كان هؤلاء الصعاليك ينفقون عليهم مما يسلبون من أموال الأغنياء . وكان جُلُّ غاراتهم على أرجلهم ، واشتهروا بسرعة العدو وقوة الجلد والشجاعة الفائقة ورباطة الجأش . ومعظم مَنْ ذكرنا

منَ الصعاليك لهم شعر معبر يصور طبائعم وخواطر نفوسهم وأحداث حياتهم .

اللغة والمعاني :

أ- ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت
٢- وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها وكانت بأعناق المطي أظلت
٣- يعيني ما أمست فباتت فأصبحت
فقضت أمورا فاستقلت فولت

اللغة :

أجمعت : عزمت وقررت . استقلت : سارت .

المعنى :

لقد أزمعت أم عمرو على الرحيل ، وفاجأتنا بالبين دون أن تودع جيرانها وأحبابها ، وقد استبدت بأمر الرحيل ، ولم يعرف أحباؤها عن عزمها شيئا إلا وقت أن طالعتهم رواحلها ، وقد فُجعنا بذلك ، وكان مما زاد حيرتنا وأثار حزننا أن أمر رحيلها حدث على مرأى منا دون أن نملك من تغييره شيئا ! .

٤- لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا مشت ولا بذات تلفت
٥- تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها لجاراتها إذا الهدية قلت
٦- كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت

اللغة :

الغبوق : ما يشرب مساءً . نسيا : شيئا مفقودا . أمّها : قصدها ووجهتها .

تبلت : تنقطع في كلامها ولا تطيله .

المعنى :

لقد أعجبتني أم عمرو في تسترها وحيائها ، فهي تلزم سمت المتصونات من النساء ، فلا يسقط قناعها كثيرا شأن المستهترات اللائي يرغبن في لفت الأنظار إليهن ، ولا تتلفت إذا مشت ، ويحمد جيرانها عشرتها ؛ إذ تتعهدهم وتسد خلاتهم ولا تغفل عن ذلك بل تداوم عليه في هدأة الليل حتى لا تجرح شعورهن ، وهي من فرط حيائها وخفرها تنظر إلى موضع قدمها في سيرها كمن تبحث عن شيء فقدته ، فلا تتحول عن مقصدها ولا تنحرف .

٧- أميمة لا يخزي نثاها حليلها   إذا ذكر النسوان عفت وجلت

٨- إذا هو أمسى آب قرة عينه   مآب السعيد لم يسل أين ظلت

٩- فدقت وجلت واسبكرت وأكملت

فلو جن إنسان من الحسن جنت

اللغة :

أميمة : تصغير تعظيم وتمليح ، أي أم عظيمة جديرة بمعنى الأمومة وحنانها وعطائها . نثاها : سيرتها . حليلها : زوجها . آب : عاد ورجع . قرة عينه : سعيد بها . دقت : كملت محاسنها . اسبكرت : طالت واعتدل قوامها .

المعنى :

هي امرأة عظيمة اكتملت فيها كل صفات الزوجة المثالية التي يسكن إليها زوجها

ويستطيب عشرتها وألفتها ، ولا يبلغه عنها إلا ما يسر النفس ويبهج الفؤاد ، ولا يصيبه بسببها ما يسوء أو يشين ، وهو مطمئن إلى مسلكها إن غاب عنها حفظت غيبته ، وصانت عرضه ، وهي لا تخرج من بيتها إلا للضرورة ، فهي ليست ممن تغيب فيبحث عنها .

وهذه المرأة قد تمت لها مقومات جمال الروح والجسد وبلغت الغاية في ذلك ، بحيث لو أن إنسانا يصل به الكمال الجمالي إلى حد الافتتان والجنون لكانت أميمة هي ذلك الإنسان !!

١٠- وباضعة حمر القسي بعثتها ومن يغز يتغنم مرة ويشمَّت

١١- خرجنا من الوادي الذي بين مشعل

وبين الجبا هيهات أنشأت سربتي

اللغة :

الباضعة : القطعة من الخيل ، سميت بذلك لأنها تبضع من تغير عليه أي تشتت شملهم وتقطعهم . حمر القسي : ذووا الأقواس التي احمر لونها لقدمها وكثرة ما استخدمت في المعارك حتى حال لونها . والتشميت : التخييب ، ومعناه هنا نفي الشماتة عنه إذا أخفق في الغزو . هيهات : بَعُدَ . السربة : رفاق الغزو ، ومعنى العبارة : ما أبعد ما رميت بأصحابي .

المعنى :

كثيرا ما خضت المعارك ، وأغرت على الخصوم في جماعة من الفرسان لهم قسي حمر ، وتعرضت معهم للأخطار شأن من يغامر ويحمل روحه على كفه ، فيغنم مرة ، ويخيب مسعاه مرة أخرى ، وكثيرا ما كانت حملاتي وإغاراتي في أماكن بعيدة ، لا يبلغها

إلا من شجع قلبه ، واستهان بالأخطار مثلي .

١٢- وأم عيـال قد شـهدت تـقـوتهم   إذا أطعمتـهم أوتحت وأقلـت

١٣- تخـاف علينا الـعيل إن هي أكثرت

ونـحـن جيـــاع أي آل تـألـت

١٤- مصعلكة لا يقصر الستر دونها   ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت

اللـغـة :

أم عيال : رمز بها الشاعر " لتأبط شرا " أحد مشاهير الصعاليك وقد كان يتولى أمر طعامهم في الغزو . تقوتهم : تطعمهم من القوت . أوتحت : بخلتْ وشحّتْ . العيل : الفقر ، والمقصود هنا : نفاد الزاد . أي آل تـألت : أي سياسة ساست ، وهو على سبيل التعجب من حسن السياسة في التحكم فـي زاد الغزاة حتى لا ينفد وهم فـي أماكن بعيدة فيهلكوا جوعا . مصعلكة : صاحبة صعاليك ، والصعلوك : الفقير الباحث عن رزقه في جرأة ولو بالإغارة والغَصْب . لا يقصر الستر دونها : ليست ممن يحتجب أو يعتني به غيره .

المـعنـى :

يتحدث عن خاله " تأبط شرا " الذي كان يتولى تدبير الزاد للغازين ، واستطرد في الحديث عنه بهذا التعبير الرمزي ، فهو يقوتهم في حذر ، ويقتصد فيما يقدمه لهم مخافة أن يطول سفرهم واغترابهم فيهلكوا جوعا ، ويتعجب من حسن سياسته وجميل تدبيره ، وأنه من الصعاليك الذين لا يخفى أمرهم ، ولا يرتجى أن يقيم في موطنه وديار قومه إلا أن يريد ذلك .

١٥- جزينا سلامان بن مفرج قرضها

بما قدمت أيديهم وأزلت

١٦- وهنيء بي قوم وما إن هنأتهم

وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي

اللغة :

سلامان بن مفرج : قبيلة نشأ فيها الشنفرى مستعبدا . قرضها : دينها ، ويعني هنا الظلم الذي أوقعته عليه ، فانتقم منهم جزاء ذلك . أزلت : أخطأت . هنيء بي قوم : فازوا بخدمتي لهم وهنأ بعضهم بعضا بذلك . هنأتهم : أفدتهم وحققت آمالهم . منبتي : منشئي.

المعنى :

يفتخر بأنه انتقم من القوم الذين استعبدوه صغيرا وأخفوا عنه أمر نسبه وقومه ، يقول : جزيت سلامان بن مفرج إساءتهم لي ، وقد ظنوا أنهم فازوا بي عبدا أخدمهم وأبذل لهم جهدي وخدمتي ، ولكني لما علمت ظلمهم لي رفضت ذلك وكنت وبالا عليهم .

١٧- إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها   ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

١٨- ألا لا تعدني إن تشكيت خلتي

شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي

١٩- وإني لحلو إن أريدت حلاوتي

ومر إذا نفس الأبي استمرت

٢٠- أبي لما يأبى سريع مباءتي

إلي كل نفس تنتحي في مسرتي

٢١- ولو لم أرم في أهل بيتي قاعدا
أتتني إذا بين العمودين حمتـي

اللـغـة :

تعدني : من عيادة المريض . تشكيت : مرضت . عدوتي : سرعتي في الجري . العزوف : الراغب عن الشيء ترفعا عنه . استمرت : كرهت . المباءة : الرجوع . تنتحي : تقصد وتريد .

المعنى :

يفتخر بصفاته الشخصية التي تحققت فيه ، فهو جريء لا يهاب الموت ولا يبالي به ، وليس ممن إذا مات ذرفت عليه العمات والخالات الدموع ؛ لأنه لا يقيم معهم ولا يعلمون من أمره شيئا في أكثر الأوقات ، وأن شأنه أن لا يحزن عليه أحبته إن ألمت به إصابة في مواجهة مع أعدائه ؛ لأنه يعتمد على قوة جلده ، وسرعة عدوه الذي يمكنه من تجنب الأخطار ، ويفتخر كذلك بأنه طيب العشرة لمن يحسن معاملته ، وأنه عنيف قاس عندما يحس أن ظلما سيلحق به ، وهو أبيٌّ للضيم ، يسالم من يطمئن إلى مودته له ، ويدخل السرور على نفسه . ثم يقول : إن الرجولة الحقة أن يدرك الإنسان أن له أجلا لن يفوته ولن يخطئه ، فلا معنى للخوف أو التخاذل ، فمثله لو ظل في جاثما في قعر بيته لأتته منيته بين أطناب ذلك البيت ؛ فلا ينبغي أن يجبن الإنسان أو يذل فإنما هي موتة واحدة لا مفر منها ولا مهرب .

تحليل وتعليق :

١) في الأبيات التي اخترناها من تائية الشنفرى موضوعات ثلاث متميزة : الغزل ، ووصف الغزو ، وفخر الشاعر بنفسه .

وهو في الغزل يرسم الصورة المثلى للمرأة التي يهواها ويتعلق قلبه بها ، ويصف رحيلها المفاجيء الذي أثار خواطره ، وجعله يحس بفقدها ، ويذكر مآثرها وصفاتها التي يندر أن تتحقق في غيرها ؛ فهي عفّة حيية ، تسخو بما عندها ، ويطيب الحديث عنها ، ولا يلحق حليلها منها ما يسوء أو يكدر الصفو ، وأنهاتلتزم في سيرها وخروجها من منزلها سمت الحياء والوقار والتستر ، وقد ذكر الأصمعي أن تلك الأبيات أحسن ما قيل في خفر المرأة وعفتها في الشعر العربي .

أما حديث الغزو والفتك فقد بين فيه الشنفرى صورة رفاقه وهم يغيرون على أعدائهم في عدد قليل من الخيل ، ومعهم أسلحتهم التي طالما أعملوها في نحور الأعداء ، وأنهم كانوا يبعدون في غاراتهم وغزواتهم ، وينقطعون عن مواطنهم مسافات وأزمنة طويلة ، ثقة بشجاعتهم ، واعتدادا بقوتهم وقدرتهم على النجاة من محاولات الإمساك بهم ، أو إفشال غزوهم . ثم يتحدث في هذا السياق عن خاله " تأبط شرا " بأسلوب الرمز ؛ فيصوره في تدبيره لطعامهم في الغزو بأم العيال التي تقتر وقت الضيق ؛ حتى لا يهلك بنوها جوعا إذا نفد زادهم ، وانقطع بهم السبيل .

وفي حديث الشنفرى عن نفسه وضّح قصة استعباد بني سلامان له عندما كان صغيرا وكيف عاقبهم على ذلك عقابا مروعا ، ثم بين أنه جريء غير هياب ، لا يخشى الموت ولا يبالي به ، وأنه يسالم من يسالمه ويعادي من يسعى في مضرته وعداوته ، وأن نهجه الذي ارتضاه لنفسه في الحياة هو التصعلك والغارة على الموسرين قساة القلوب الذين يحقرون الضعفاء ويضنون عليهم ويهدرون آدميتهم ، ومواساة أولئك البؤساء بما

يغنم هو وأصحابه من أيدي الأغنياء ، وهو يؤمن بـان منيتـه لـن تتـأخر إن هـو جبـن عـن الغزو وجثم فـي بيتـه ، فـلا معنـى إذاً لأن يسـلك مسـلك الجبنـاء الحريصيـن علـى الحيـاة الفزعين من الفتك والمخاطرة .

٢) تصور القصيدة جانبا من واقـع الحيـاة ، وترسم صـورة لقطـاع عريـض مـن المجتمـع الجاهلي ؛ إذ نستشف منها بعـض مثاليـات ذلـك المجتمـع ممثلـة فـي أمـور : منهـا صـورة المرأة المثالية في ذهن العربي التواق إلى معالي الصفات والخصال ، وهي المرأة المتسترة الحيية السخية بما عندها التي تتصف بحسن السمعة وطيب الأحدوثة ، وقـد جـاء الإسـلام فأعلى من شأن تلك الصفات ، وجعلها مسلكا محمودا طالب المرأة بأن تلتزم بـه وتحـرص عليه .

ومنها صورة الصعاليك الذين كانوا يمثلون الرد التلقائي على الظلـم الاجتمـاعي الـذي نتج عن فقدان النظام الاجتماعي الصحيح ؛ إذ كان العرب قبل الإسلام بعيدين عن المنهـج الذي يعصم مجتمعهم العام من الظلم والعدوان ، فعاشوا في أسر تقاليدهم القبلية الضيقة بما كان يحيط بها من مظالم وقسوة ، واستعلاء من الأقويـاء ، واستعباد للمسـتضعفين ، وفـي قصة أسر الشنفرى وهو صغير أقوى دليل على ذلك . وتطلعنا تلك القصيدة على كثير مـن الأمور التي اعتمد عليها الصعاليك في صراعهم لمقاومة الظلم الواقع عليهـم ؛ إذ اعتمـدوا على الخطار بالنفس ، والجرأة الفائقة ، والتمرس بأعمال القتال ، وسرعة العدْو ، وتكوين الجماعات المهاجمة ، واختيار الأماكن التي يغيرون عليهـا والتـي تحقـق مـا يريـدون بدقـة فائقة ، والمهارة في وسائل التخفي والتفنن في الخلاص من قبضة الأعداء ، وعدم الوقـوع في الأسر ..إلى غير ذلك من الحيل والأساليب الدهائية التي اشتهروا بحذقها .

ومنهـا أن الصعـاليك لـم يكونـوا أشـرارا علـى الإطـلاق بـل كـان لـهم جـانب إنسـاني وضـيء ، يحبون من يسالمهم ويعطف عليهم ، ويحفظ كرامتهم وآدميتهـم ، ويعـادون مـن يحقرهم أو يهون من شأنهم .

٣) لغة الشاعر سلسة معبرة ، وصوره دالة ، وعباراته منتقاة ، تتصف بالوضوح وقرب التأتي ، وتكشف عن تجربة إنسانية لا تكلف فيها ولا افتئات ، والشاعر مالك لناصية التعبير الواضح المؤثر ، وفي ذلك دلالة على صدق التجربة ، وصدق التعبير ، فهو لا يبالغ ، ولا يتزيد ، بل يرسم الوقائع في تجرد وموضوعية ، وحسنها وتأثيرها نابع من تلك الروح ، فهو لا يخبرنا عن أمور لا حقيقة لها ، أو تهويمات من قبيل الخيال ، بل يرسم أمام أعيننا صورا واقعية ، عايشها وانفعل بها ، ونقلها في شعره نقلا أمينا .

وقد بدأ البيت الأول بأداة الاستفتاح " ألا " وهي تفيد التنبيه وتثير الاهتمام لما يأتي بعدها ، وهو أمر رحيل فتاته "أم عمرو " الذي يعده خطبا جللا ، وأمرا مفزعا أثار خواطره ، وأهاج وجدانه ، ويفيض بعد ذلك في بيان آثار رحيلها المفاجيء ، وابتعادها غير المتوقع ، ويستطرد من ذلك إلى بيان صفاتها المستحبة ، وخلالها نادرة المثال .

وبعد أن يفرغ الشنفرى الشحنة العاطفية التي ألحت على خاطره في حديث ذكرياته مع فتاة أحلامه ، وسمير روحه ـــ ينتقل لحديث الفروسة والشجاعة الذي يداعب خيال أمثاله من الفتاك الشجعان ، وأهل الفروسية والخطار بالروح في سبيل المبدأ ، فيرسم صورة محببة لنضال رفاقه الصعاليك ، وما امتازوا به من شجاعة وجلد ، ثم يسجل في ذلك السياق قصته مع بني سلامان ، لما تدل عليه من إباء للضيم ، وانتقام ممن أهانه وأزرى به ، حتى وهو في عهد الطفولة الباكرة التي لا يملك لنفسه من واقعها شيئا ، ولكنه انتقم لنفسه ، وكان بمقدوره أن يعتذر عنها لو شاء ، بيد أن نفسه الأبية ، وإحساسه بشخصه دفعاه إلى عدم الرضا عن ذلك ، ومعاقبة القوم على جريمتهم بحقه ، إذ لا يقدر على ذلك سواه .

وفي القطعة كلها يعرض علينا الشاعر معانيه في بيان معبر ، وأداء فائق ، يستوي في ذلك تصويره وتقريره ، وحكمته .

المتنبي يصف حاله بمصر :

مَلُومُكما يَجِلُّ عَنِ المَلامِ
وَوَقْعُ فَعَالِهِ فوق الكَلامِ
ذَرَاني والفلاةَ بِلا دليلِ
ووجْهي والهَجِيرَ بلا لِثامِ
فإنّي أسْتَريحُ بِذَا وهذا
وأتْعَبُ بالإناخَةِ والمُقامِ
عيونُ رواحلي إنْ حِرْتُ عيني
وكلُّ بُغامِ رازِحَةٍ بُغامِي
فقد أرِدُ المياهَ بغيرِ هادِ
سوَى عَدّي لها بَرْقَ الغَمامِ
يُذِمُّ لِمُهْجَتِي ربّي وسيفي
إذا احتاجَ الوحيدُ إلى الذِّمامِ
ولا أُمْسِي لأهْلِ البُخْلِ ضيفا
وليسَ قِرًى سوى مُخِّ النّعامِ
فلَمّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا
جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرْتُ أشُكُّ فيمنْ أصْطفيهِ
لِعِلْمِي أنّهُ بعضُ الأنامِ

يُحِبُّ العاقلون على التَّصافي
وحبُّ الجاهلين على الوَسَامِ
وآنَفُ مِنْ أخي لأبي وأمي
إذا ما لَمْ أجِدْهُ مِنَ الكَرامِ
أرَى الأجدادَ تَغْلِبُها جميعاً
على الأولادِ أخْلاقُ اللِّئامِ
ولستُ بقانعٍ منْ كُلِّ فَضْلٍ
بِأَنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ
عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ
ويَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ
ومَنْ يَجِدِ الطريقَ إلى المعالي
فلا يَذَرِ المَطِيَّ بلا سَنَامِ
ولمْ أرَ في عيوبِ الناسِ شَيْئاً
كنقصِ القادرِينَ على التَّمامِ

• • •

أقَمْتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائي
تَخُبُّ بِيَ المطيُّ ولا أمَامِي
ومَلَّنِيَ الفِراشُ وكان جَنْبِي
يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كلِّ عامِ
قليلٌ عائِدِي سَقِمٌ فُؤَادي
كثيرٌ حاسدي صعبٌ مَرَامي

عليلُ الجسمِ مُمْتَنِعُ القِيامِ
شَـديـدُ الـسُّكْرِ من غيرِ المُدامِ
وزائِرَتي كـأنَّ بهـــــا حَيـاءً
فـليسَ تزُورُ إلا في الظَّــــلامِ
بَـذَلْـتُ لـهـا المَـطارِفَ والحَشَايـا
فَـعَـافَتْـهـا وبـاتَتْ في عِظـامِـي
يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وعَنْها
فَتُوسِعُهُ بأنـواعِ الـسَّقَــــامِ
إذا مــا فــارَقَتْنِـي غَسَّلَتْنِي
كـأنَّـــــا عـاكفان على حَرامِ
أُراقِبُ وَقْتَها مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ
مُـراقَبَةَ الـمَشُوقِ الـمُسْتَهـامِ
ويَصْدُقُ وَعْدُها والـصدقُ شَرٌّ
إذا أَلْقَـاكَ في الـكُـرَبِ الـعِظَـامِ
أبِنْتَ الـدهْرِ عـندي كُلُّ بِنْتٍ
فكيفَ وَصَلْتِ أنتِ من الزِّحـامِ
جَرَحْتِ مُـجَرَّحـاً لـم يَبْقَ فيـه
مكـانٌ للجـــروحِ ولا الـسِّهَـــامِ

• • •

ألا يـالـيتَ شِـعْرَ يَدِي أتُمْسي
تَـصَرَّفُ في عِنـــانٍ أوْ زِمـــامِ

وهـل أرْمِـي هَـوايَ بِـرَاقِصـاتٍ
مُـحَلاَّةِ الـمَقــاوِدِ بِاللُّغَــــامِ
فَرُبَّتَمـا شَـفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي
بِسَيْرٍ أوْ قَنـــــاةٍ أو حُسَـامِ
وضـاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ منـها
خِلاصَ الخَمْرِ مـن نَسْجِ الفِـدامِ
وفـارَقْتُ الـحبيبَ بـلا وَدَاعٍ
وودَّعْـتُ الـبِـــلادَ بـلا سـلامِ
يـقولُ لِيَ الطَّبيبُ أكَلْتَ شيئـا
وداؤُكَ فـي شرابِكَ والطَّعـامِ
ومـا في طِـبِّهِ أنِّـي جَـوادٌ
أضَـرَّ بجسمـهِ طُـولُ الجَمَـامِ
تَـعَـوَّدَ أنْ يُـغَبِّرَ في السَّرايـا
ويَدْخُلَ مِنْ قَتَـامٍ في قَتَــامِ
فَـأُمْسِكَ لا يُطـالُ لـهُ فَيَرْعَى
ولا هُـوَ فـي الـعَليقِ ولا اللِّـجَــامِ
فـإنْ أمْرَضْ فما مَرِضَ اصْطِباري
وإنْ أُحْـمَمْ فمـا حُمَّ إعْتِـزامِـي
وإنْ أسْـلَمْ فما أبْقَى ولـكِنْ
سَلِمْتُ مِنَ الـحِمـامِ إلى الحِمـامِ

تعريف بالشاعر :

أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ ، ونشأ بها في أسرة فقيرة ، كان والده يعمل سقّاءً ، يتعيش من هذا العمل الذي لا يكفل لمن يمتهنه سعة في المال ، أو نباهة في المجتمع . أُولع أحمد بن الحسين منذ صباه الباكر بالعلم والمعرفة ، واشتهر بإجادة الحفظ وصفاء الذهن ، ولمس فيه والده ذلك فجهد في تعليمه وتأديبه ، ورحل والده به إلى الشام ، وتنقل في بواديها وكان ابنه في ثنايا ذلك يأخذ اللغة والفصاحة عن الأعراب القاطنين بتلك الأصقاع ، وكانت لغتهم ما تزال على فصاحتها وسلامتها ، فأفاد المتنبي من ذلك أيما إفادة ، وبدت موهبته في قرض الشعر ، فالتف حوله الناس وزاد إعجابهم به ، وامْتُحِنَ المتنبي في تلك المرحلة من عمره بتهمة الخروج على سلطان الدولة ، وادعاء النبوة ، وهما تهمتان باطلتان ، فقبض عليه وأودع السجن ، ولبث به مدة ثم استعطف والي حمص من قبل الإخشيديين فأطلق سراحه ، فخرج وقد التصق به لقب المتنبي مع كراهيته له وتبرئه منه ، فأخذ يمدح صغار الولاة والموسرين وينال عطاياهم ، حتى اتصل بسيف الدولة الحمداني فقربه إليه ، وصار من خلصائه الذين لا يفارقونه ، وعظم شأن أبي الطيب في بلاط سيف الدولة ، وخلد الشاعر ذكر الأمير ، وجعل سيرته وبطولاته تتناقلها الأجيال ، وتزهو بها سطور التاريخ ، لكنّ اعتداد أبي الطيب بنفسه ، وكثرة حاسديه والحاقدين عليه كانا سببا في وقوع الجفاء والمغاضبة بينه. وبين سيف الدولة ، فاضطر المتنبي إلى مفارقة صديقه وولي نعمته مرغما ، فرحل إلى مصر واتصل بواليها كافور ومدحه ، ولكن مقام أبي الطيب بمصر لم يكن محققا لآماله ولا مرضيا لطموحه ، فشكا سوء حاله بها في شعره ومنه القصيدة التي ندرسها في هذا الاختيار ، ثم غادر مصر هاربا من كافور سنة ٣٥٠هـ ، فعرّج على الكوفة فبغداد ، ثم قصد عضد الدولة بن بويه في بلاد فارس فمدحه ومدح وزيره ابن العميد ، فأجزل له

العطاء وبالغ في إكرامه ، غير أنه ما لبث أن قرر العودة للعراق ، وفي أثناء عودتـه لقيـه أعراب من بني ضبة كان قد هجا رجـلا منهـم ذا مكانـة وبـأس هـو فـاتك بـن أبـي جهـل فتربصوا به ، وكمنوا له ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤هـ .[١]

ولأبي الطيب مكانة مرموقة في الشعر ، وموهبة لا نظير لها في البيان ، وهـو حكيـم الشعراء ، وفارس الكلمة الدالة والفكرة الثاقبة ، والمعنى المبتكـر ، كما أنـه كـان صـاحب مذهب شعري لم يجاره فيه غيره ، ولم يبلغ أحـد فيـه شـأوه ، وشـعره فـي أعمـه الأغلـب تصوير لنفسه وتعبير عن خواطره ورؤاه ، وله في تأمل أحوال الناس وفلسفة الحياة ما لـم يُسمع لغيره من شعراء العربيـة ، مع دقـة تعبير ، وروعـة صياغـة ، وتمكـن مـن أدوات البيان ، ووسائل البلاغة الراقية ، والعبارة التي تسير مسير الأمثـال ، ثـم هـو فـي شـعره معتد بنفسه أشد الاعتداد لا يرى له مثيـلا ، ولا يعترف لأحد بفضـل ، ولا لسـواه بتفـوق ونبـوغ ، وكان ذلك المنزع سببا في اجتـلاب عداءات كثيرة ، وضغينـة مـلأت قلـوب حاسديه ، ومنافسيه .

• • •

اللـغـة والـمـعـانـي :

مَـلُومُكـمـا يَجِلُّ عَنِ الـمَــلامِ
وَوَقْـعُ فَـعَـالِـهِ فـوقَ الـكِـلامِ
ذَرَانـي والـفـــلاةَ بِـلا دلـيــلِ
ووجْـهـي والـهَـجِـيرَ بـلا لِـثـامِ
فـإنِّـــي أسْتَرِيـحُ بِــذَا وهــذا
وأتْـعَـبُ بالإنـاخَــةِ والمُـقـامِ

اللـغـة :

ملومكما : الشخص الذي تلومانه ، ويعني نفسه ، وقـد جرد صديقيـن يحاورهمـا فـي هذا السياق على عادة الشعراء العرب . يجـل : يعظـم . المـلام : اللـوم والتـأنيب . الكـلام بفتح الكاف : هو الكلام المعروف ، وروي بكسر الكاف : أي الجراح .
ذراني : اتركاني . الفلاة : الصحراء الواسعة البعيدة عن المـاء . الهجـير : شـدة الحـر . اللثام ما يغطى به الوجه حماية له أو تخفيا . الإناخة : النزول والاستقرار فـي مكـان بعد السفر .

المعنـى :

يقول لصاحبيه اللذين يلومانه على المخاطرة بنفسه وتعريض حياتـه للخطـر ــ اتركـا لومي وتعنيفي ؛ فأنا بعقلي ورؤيتي للأمور أسمو عن أن ألام ؛ لأنـي لا أرى لأحد فضـلا علي في بعد النظر ، وحسن تقديـر الأمـور ، ثـم إن اللـوم يؤذينـي لدقـة إحساسـي ، ورقـة مشاعري ، فهو بالنسبة لي ليس مجرد كلام أسمعه بل إن وقعه على نفسي شديد .

ثم يقول لصاحبيه خلياني ومـا نـذرت نفسـي لـه ، فقد ألفتْ نفسـي حيـاة المخـاطرة ومجابهة الصعاب ، وهي تجد راحتها في ذلك فتجوب الصحارى بلا دليل وتسير في الحـر الشديد بلا لثام ، وتتعب إن هي جثمت وسكنت وانزوت .!!

عيونُ رواحلي إنْ حِرْتُ عيني
وكلُّ بُغامِ رازِحَةٍ بُغامِي
فقد أرِدُ المياهَ بغيرِ هادِ
سوَى عَدِّي لها بَرْقَ الغَمامِ
يُذِمُّ لِمُهْجَتِي ربِّي وسيفي
إذا احتاجَ الوحيدُ إلى الذِّمامِ

اللغة :

الرواحل ، جمع راحلة : الناقة أو الجمل الذي يتخذ للسفر وحمل الأمتعة . حرت : تحيرت واشتبهت علي الدروب والمسالك . البغام صوت الإبل من التعب كأنه الأنين . والرازحة : هي الإبل التي يصيبها الإعياء من طول السفر . هاد : دليل مرشد . عدي لها برق الغمام : قالوا إن العرب الذين أَلِفُوا حياة البادية كانوا إذا رأوا برقا في الأفق في جهة ما جعلوا يعدون مرات البرق فإن بلغ عددا معينا أيقنوا أنه خلّف مطرا كثيرا فاتجهوا ناحيته للسقيا . يذم : يحفظ من الذمام بمعنى العهد والحفظ . المهجة : الروح .

المعنى :

يواصل الشاعر حواره مع رفيقيه في سياق الفخر والتنفيس عن خواطره الحزينة ، وإحساسه بالضيق من واقع حياته الذي لا يرضيه فيقول استطرادا لما ذكره عن حبه للمخاطرة واقتحام الصعاب :

إن اشتبهت على المسالك اهتديت بعيون رواحلي ، وإن ضللت السبل اهتدى الباحثون عني بصوت إبلي ، وإن نفدت مني المياه في الصحراء اهتديت إلى أماكنها من وميض البرق كما يفعل الأعراب العارفون بطبيعة البادية ، وأنا في حماية ربي لأني مؤمن بقضائه ، ثم في منعة من الأخطار بشجاعتي وسيفي الذي أجيد استخدامه ، وأحمي به نفسي حتى إذا كنت وحيدا .

ولا أُمَسِي لأهْلِ البُخْلِ ضيفا
وليسَ قِرًى سوى مُخِّ النَّعـــــامِ

اللـغـة :

القرى : ما يقدم للضيف . مخ النعام ، قيل أراد به نفي وجود الزاد كانتفاء وجود مخ للنعام ، وري : مح بالحاء المهملة بمعنى بيض النعام .

المـعنى :

لا أقبل أن أهين نفسي بالنزول على البخيل حتى لو لم أجد زادا ، أو لو اضطررت إلى أكل بيض النعام فإني أفعل ذلك وأفضله على اللجوء إلى ضيافة البخيل .

فلَمَّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا
جزيتُ على ابتسامٍ بابتســـــامِ
وصرْتُ أشُكُّ فيمنْ أصْطفيهِ
لِعِلْمِي أنَّهُ بعضُ الأنــــــامِ
يُحِبُّ العاقلون على التَّصافي
وحبُّ الجاهلين على الوَسَامِ

اللـغـة :

الخب : المكر والخداع ، أصطفيه : أختاره . الوسام والوسامة : الحسن .

المعنى :

لما صار ودُّ الناس غير صادق صرت أفعل كما يفعلون ، فإذا تبسموا إلي تبسمت لهم وصرت أتوجس شرا من مودة من أوده من الناس لعلمي أنه بشر طبعه من طبعهم ، والعاقل هو من يتأكد من مودة من يصادقه ، ويختبر معدنه ، أما الجهال فهم الذين

تخدعهم الأقنعة الزائفة التي يلقاهم الناس فيها ، ويدارون بحسنها الظاهر سوء طواياهم .

وآنـفُ مِـنْ أخـي لأبـي وأمـي
إذا مـا لـم أجِدْهُ مِنَ الـكَرامِ
أرَى الأجـدادَ تَـغْلِبُـها جميعا
علـى الأولادِ أخْـلاقُ اللِّـئـامِ
ولستُ بقانـعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ
بِـأنْ أعْـزَى إلـى جَـدٍّ هُمَـامِ

اللـغـة :

آنف : من الأنفة وهي الترفع عن الأمر غير المحبوب . أُعْزَى : أُنْسَب .

المـعـنى :

يقول : إني لأخجل من أخي الشقيق إذا لم يكن في مسلكه ومنهجه في الحياة من الكرام ، وإن الخلق اللئيم قد يغلب الأصل الطيب ، فيكون الأجداد كراما والأبناء والأحفاد لئاما ، وأنا لا يكفيني أن أنسب إلى أصل طيب دون أن أحرص على ما يقتضيه ذلك النسب من الاستزادة من كل فضل ، والسعي لإضافة مآثر أعرف أنا بها بين الناس وأزداد بالتحلي بها فضلا .

عَجِبْتُ لِمَنْ لَـهُ قَـدٌّ وَحَـدٌّ
ويَـنْبُو نَـبْـوَةَ الـقَـضِمِ الكَـهَـامِ
ومَنْ يَـجِدِ الطريقَ إلى المعالي
فـلا يَـذَرِ المَطِيَّ بِـلا سَنَـامِ
ولمْ أرَ في عيـوبِ الـناسِ شيئـا
كـنقصِ القادرِينَ على التَّـمـامِ

اللـغـة :

القد : القامة ، وعنى هنا هيئة الرجال واكتمال الجسم والبنية . والحد : الجانب القاطع من السيف أو ما أشبهه . ينبو : يكل ويضعف ، يقال : نبا السيف عن الضريبة بمعنى لم يكن قاطعا . والقضم : السيف المفلل أي الذي تثلم حده . والكهام : السيف الضعيف الذي لا يقطع ولا غناء فيه .

المـعـنـى :

يقول الشاعر إنه ليتعجب أشد العجب من الرجل تكون هيئته مكتملة وقدراته وافرة ثم يتصف بالعجز والخور ، ويقعد عن مهمات الأمور ، فلا عذر لمن وجد السبيل منفسحة أمامه لاكتساب المحامد ، وتحقيق الأمجاد ولم يتعب نفسه ويجهد جهده لبلوغ تلك الغاية ، وليس هناك من عيب ونقص أقبح ولا أبعد عن المروءة من نقص القادرين على بلوغ الكمال ثم يقعدون عنه دون عذر ولا مبرر .

أَقَمْتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائي
تَخُبُّ بِيَ المطيُّ ولا أَمَامِي
ومَلَّنِيَ الفِراشُ وكان جَنْبِي
يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كلِّ عامِ
قليلٌ عائِدِي سَقِمٌ فُؤَادي
كثيرٌ حاسدي صعبٌ مَرَامي
عليلُ الجسمِ مُمْتَنِعُ القِيام
شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدامِ

اللـغـة :

تـخب : تسرع ، من الخبب وهو نوع من سير الإبل فيه نشاط وإسراع . سقم : عليل مُرامي : ما أؤمله وأتوق لتحقيقه . المُدام : الخمر .

المـعـنـى :

يصور الشاعر شعوره بالضيق وضياع الآمال بعد بقائه بمصر زمنا ، وفشله في بلوغ ما كان يرجو فيقول :

إنه أقام بأرض مصر وحيدا معزولا مهملا ، لا يكاد يشعر به أحد ، مع أنه قبل ذلك كان يشار إليه بالبنان ، إذا سار ففي حشد من الأتباع والمحبين ، حياته نشاط دائم ، وأنس موصول ، ولكنه في مقامه بمصر يعاني الركود والخمول ، حتى لكأن فراشه قد مل ملازمة جسمه له ، وكره التصاقه به ، في حين أنه قبل ذلك كان لا يكاد يلم بذلك الفراش وكان جنبه هو الذي يمل الفراش إذا صادفه مرة على مدار العام ، وهو في مقامه هذا غير المحبوب قليل العواد ، مهموم النفس والقلب ، كثير حاسدوه والشامتون به ، مبددة آماله ، عليل جسمه محطم بنيانه ، إذا نهض تحامل على نفسه مخافة الترنح والسقوط كأن به سكرا من نوع فريد ليس من خمر احتساها بل من هم نـاء بـه جسمه ، وضيق جثم على فؤاده فلم يدع له سلامة العقل ولا صحة البدن .

وزائِرَتِي كـأنَّ بهـــــا حَيـاءً
فـليسَ تزُورُ إلا في الظَّـــــلامِ
بَذَلْتُ لـهـا المَطارِفَ والحَشَايا
فَعَافَتْـهـا وبـاتَتْ في عِظـامِي
يَضيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وعَنْها
فتُوسِعُهُ بأنـواعِ السَّقـــــامِ

اللـغـة :

الزائرة قصد بها هنا : الحمى التي ألمت بـه ، ومن شأنها أن تـأتي نوباتهـا ليـلا ، فصورها الشاعر بالزائرة الخجولة التي تأتي حبيبها ليلا خشية أن يفتضح أمرها .
المطارف ، جمع مطرف : غطاء وثير مزين الأطراف . الحشايا ، جمع حشية : ما حشـي من الفراش ليُجْلس أو يُنام عليه .
الـمـعـنـى :

يبدأ أبو الطيب في وصف الحُمَّى التي أصابته وهو مقيم بمصر فيكني عنها بـالزائرة ويجيد وصفه لها ويستطرد فيه على هذا النحو الرمزي فيذكر أنها كانت لا تزوره إلا فـي الظلام ، وأنه كان يهيء لها الفرش والأغطية القيمـة فتترك ذلك وتـأبى إلا أن تبيت فـي عظامه ، وأن مبيتها ذلك كان ينتج عنه هزال جسمه وترهل جلده بسبب توسيعها لـه لتجد مكانا تستقر فيه .

إذا مـا فـارَقَتْنِي غَسَّلَتْنِي
كـأنَّـــا عـاكفـان على حَرامِ
أُراقِبُ وَقْتَها مِنْ غَيْرِ شَوقٍ
مُـراقَبَةَ الـمَشُوقِ الـمُسْتَهـامِ
ويَصْدُقُ وَعْدُهـا والـصـدقُ شَـرٌّ
إذا أَلْقـاكَ في الكُـرَبِ العِظـامِ

المعنى :

وهذه الزائرة عندما يحين وقت فراقها تتركني وكأني قد اغتسلت من شدة العرق ، ونوبة الحمى ، وكأني وإياها كنا اقترفنا ما يوجب التطهر والاغتسال . وهذه الزائرة تأتي كل ليلة في موعد لا تتخلف عنه ، وأنا أتوقع قدومها وأرقبه في غير شوق لذلك القدوم ، وأتمنى أن تخلف موعدها ، وتتقطع زياراتها ، ولكنها من أسف تصدق في التزامها بموعدها ، وصدقُها ذلك هو الشر بعينه ، وذلك من غريب المفارقات لأنه صدق يعقبه كرب عظيم ، وشرٌّ وبيل !!

أَبِنْتَ الدهْرِ عندي كُلُّ بِنْتٍ
فكيفَ وَصَلْتِ أنتِ من الزِّحامِ
جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يَبْقَ فيه
مكانٌ للجـــروحِ ولا السِّهـــامِ

اللغة :

بنت الدهر : يقصد بها الحمى التي أصابته ، وبنات الدهر : شدائده ومصائبه .

المعنى :

يقول مخاطبا الحمى ومنفسا عن ضيق نفسه والكرب الذي هو فيه : أيتها الحمى أنا لديَّ من هموم الحياة ومصائب الدهر ما يكفيني ، فقد أحاطت بي المصائب ، وتجمعت من

حولي الكوارث ، وإني لفي عجب من وصولك إلي ، وإلمامك بي على الرغم من كثرة ما يحيط بي من الأهوال !! لقد آلمت مصابا ليس في جسده موضع يتحمل طعنات جديدة فضلاً عما به من جراحات !! .

ألا ياليتَ شِعْرَ يَدي أتُمْسِي
تَصَرَّفُ في عِنـانٍ أوْ زِمـامِ
وهل أرْمِي هَوايَ بِرَاقِصاتٍ
مُحَلاةِ المَقَـاوِدِ بِاللُّغَـامِ

اللغة :

ليت شعر يدي : أي ليت يدي تشعر وتعرف وسيلة تحقق لها ما أتمناه . والعنان ما يقاد به الفرس ، والزمام للإبل . الراقصات : الإبل تسير في سرعة ونشاط . والمقاود ، جمع مقود : ما تقاد منه الدابة . اللغام : زبد أبيض يسيل من فم البعير .

المعنى :

بعد أن شكا أبو الطيب ما كان يشعر به ويعاني من ويلاته بمصر من ألم النفس ، وإلمام الحمى ـ بدأ يستعرض أمنياته التي يريد أن يحققها ، وحياته الأولى التي يود أن تعاد كرتها من جديد فيقول :

ليتني أعاود حياة الأسفار والحياة الحرة الخالية من القيود ، فأركب الإبل ، وامتطي الخيل وأمضي هنا وهناك كما كنت أفعل ، وأمارس الحياة التي أحبها ، والعيش الذي أفضله ، وأصول وأجول دون أن تقيد حركتي ، وتكبلني القيود .

فَرُبَّتَما شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي

بِسَيْرٍ أَوْ قَنـــــاةٍ أو حُسَامِ

وضاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ منها

خلاصَ الخَمْرِ من نَسْجِ الفِدامِ

وفارَقْتُ الحبيبَ بلا وَدَاعٍ

ووَدَّعْتُ البــــلادَ بلا سلامِ

اللغة :

الغليل : حرُّ الصدر يكون من عشق وغيره . الحسام : السيف القاطع . خطة : أمر صعب . الفدام : قطعة من نسيج رقيق توضع على رأس وعاء الخمر تمنع نزول الشوائب .

المعنى :

لو حدث ما أتمناه ، وتم لي ما أريد فإني سأستريح مما أعانيه ، وستكون تلك المخاطرات والأزمات التي أعرف كيف أتغلب عليها ، وأذلل صعبها — هي التي ستريحني ، وتدخل السرور على نفسي ، وتعيد إليّ الشعور بالرضى .

يقولُ لِيَ الطَّبيبُ أكَلْتَ شيئا

وداؤكَ في شرابِكَ والطَّعامِ

وما في طِبِّهِ أنِّي جَوادٌ

أضَرَّ بجسمهِ طُولُ الجَمَامِ

تَعَوَّدَ أنْ يُغَبِّرَ في السَّرايا

ويَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ في قَتَامِ

فَأُمْسِكَ لا يُطالُ لهُ فَيَرْعَى
ولا هُوَ في العَليقِ ولا اللِّجامِ

اللغة :

الجمام : أن يترك الفرس فلا يركب . والقتام : الغبار . والسرايا ، جمع سرية : وهي جماعة المقاتلين التي تسير إلى العدو خفية .

المعنى :

يربط المتنبي بين ما انتابه حال مقامه في مصر من ضيق النفس والاحباط وبين إصابته بالحمى فيقول : لقد ظن الطبيب الذي جيء به ليعالج جسمي أنني محموم بسبب عادي كما يكون عند سواد الناس ، مرتبط بتناول نوع من الطعام أو الشراب ، والطبيب معذور في تقديره واستنتاجه ، لأن ما أصابني ليس مما درسه وعلمه ، ومصابي الذي أعاني بسببه هو ألم النفس وضيق الصدر وتحطم الآمال ، وذلك كله لا ريب يؤثر على كيان المرء كله ، فالحمى التي أصبت بها أعرف مسبباتها ودواعيها ، فحالي كحال الفرس الجواد الذي إن بُوعِدَ بينه وبين الكر والفر والعدو والمصاولة ـ ضعفت قوته ، وترهل جسمه ، وغدا غير مطيق لنزال ، ولا مؤهل للسبق في مضمار !! .

فإنْ أمْرَضْ فما مَرِضَ اصْطِباري
وإنْ أُحْمَمْ فما حُمَّ إعْتِزامي
وإنْ أسْلَمْ فما أبْقَى ولكِنْ
سَلِمْتُ مِنَ الحِمامِ إلى الحِمامِ

اللـغــة :

اصطباري : صبري ومقاومتي للصعاب . أحمم : أصاب بالحمى .

والحمام : الموت .

المـعـنـى :

يختم الشاعر قصيدته كما بدأها قوي الإرادة ، صلب العزيمة ، لا يتسسل اليأس إلى نفسه ، ولا يعرف الضعف طريقه إلى شخصه .. فيقول :

إن أصابني المرض فقد نال من جسمي ولكنه لم ينل من تصبري وجلدي وقوة إرادتي ، وإن ألمت بي الحمى فإن عزيمتي لم تصب بمكروه ، وإذا سلم الجوهر فإن العرض لا يؤثر فيه ، وأنا أومن بأن للإنسان نهاية محتومة ، فطالما بقي على قيد الحياة فهو معرض للصحة والمرض ، والسراء والضراء ، والإقبال والإدبار .... ثم تكون النهاية المحتومة ، وكأس المنية الذي يتجرعه كل حي إذا حان حَيْنُه ، وحُمَّ قضاؤه !!.

التحليل والتعليق :

١) تصور القصيدة في جلاء وجدان أبي الطيب في المرحلة التي عاشها في مصر ، وتعبر عن ضيقه ومعاناته عندما أيقن من تبدد آماله ، وأحس بالحنق على ما صار إليه أمره من إهمال وتجاهل ، فهي من الشعر الذاتي الذي تمتزج فيه رؤى الشاعر وخواطره بأحداث الحياة من حوله وتأثيرها عليه ، وقد نجح المتنبي بصدق المعاناة ودقة التعبير في تصوير تلك المعاني والخطرات النفسية الدقيقة ، وأن يقنع متلقي شعره بها ، ويجعل التجربة التي عاناها وصورها في قصيدته معاشة محسة لدى متذوقي شعره ، فصارت تنبض بروحه المكروبة ، وخواطره المهتاجة ، وتعبر عن آماله المبددة التي تبحث عن مخرج تنفذ به من ذلك الطوق الصفيق الذي أحاط بها ، وأوشك على أن يخنقها ويودي بها .

٢) فرضت التجربة طابعها على تعبير الشاعر ، فهي عند التأمل تتركز في مراجعة الشاعر لواقعه المهمل المشين مقارنا بماضيه الزاخر بالرفعة وعلو المكانة والشهرة وذيوع الصوت .... ، وعند تأمل الشاعر لماضيه وحاضره تبدت له المفارقات الصارخة ، وتجسمت أمام ناظريه فداحة الرزء الذي أصيب به ، ففرض ذلك على صياغته للمعاني ذلك الطابع وتلك السمة ؛ فقد أقام بأرض مصر ساكنا خاملا مهملا منزويا لا تخب به المطي ، ولا يحيط به المريدون والمعجبون ، ومل الفراش جنبه وكره جثومه وملازمته في حين كان جسده فيما مضى هو الذي يمل الفراش إن استلقى عليه مرة في العام !! ، ثم إن هيئته وصورته الظاهرة هيئة من عمل فيه السكر ولكنه في حقيقة الأمر سكر الهم والحزن والكمد لا سكر الخمر والنشوة والسرور !! .

وهذه السمة الدالة على المفارقة وتكثيفها في القصيدة واضحة في كثير من جوانب القصيدة ؛ حتى إن المتنبي عندما صور إلمام الحمى المتكرر له لم تفارقه تلك الرغبة في

التعبير عن سوء الحظ الملازم له وتصوير تلك المفارقات المبكية ؛ فهو يعد لتلك الزائرة المطارف والفرش فتتركها وتأبى إلا أن تسكن في عظامه وتهد قواه !! .

٣) من ميزات شعر المتنبي التي لا يجاريه فيها نظير إرساله الأقوال الصائبة ، والحكم السديدة ، والتأملات الثاقبة ، وقد حفلت قصيدته هنا بتلك الأقوال ، وهو في هذه القصيدة لم يسردها سردا ، ولم يقحمها في مواضعها إقحاما بل أتي بها في سياقها مؤكدة ما يطرحه من أفكار ، وما يصوره من خواطر ويعرضه من تأملات ، ولتدلل على ثاقب رؤيته لأحداث الحياة وتقلباتها ، وعلاقات الناس وأخلاقهم ، ومن ثم تغدو مثرية لمتأمل شعر المتنبي بفيوض من التجارب النافعة ، والسلوك القويم الذي يرسم للقيم الخلقية السديدة أطرها الصحيحة ، ومن ثم تجعل الإنسان يعتز بها ويحرص عليها ، ولا يتحول عنها مهما صادفه في سبيل ذلك من مصاعب ، أو اقتضاه من تضحيات ؛ لأنه يدرك أنه على جادة الصواب ونهج الأحرار الذين لا يتلونون ، ولا يداجون ، ولا يخشون في الحق لائمة ، ولا يعطون من أنفسهم الدنية مهما كانت العواقب .

ولعل من أقوى الدلائل على تلك الظاهرة في القصيدة ـ الأبيات :

ولا أُمْسِي لأهْلِ البُخْلِ ضيفا
وليسَ قِرًى سوى مُخِّ النَّعامِ

فلَمَّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا
جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ

وصرتُ أشُكُّ فيمنْ أصْطفيهِ
لِعِلْمِي أنَّهُ بعضُ الأنامِ

يُحِبُّ العاقلون على التَّصافي
وحبُّ الجاهلين على الوَسَامِ

وآنَفُ مِنْ أخي لأبي وأمي
إذا ما لمْ أجِدْهُ مِنَ الكَرامِ

أرَى الأجـداد تَـغْلِبُـهـا جميـعـا
علـى الأولادِ أخْــلاقُ اللِّـئـامِ
ولستُ بقـانـعٍ مـنْ كُلّ فَضْلٍ
بِأنْ أُعـزَى إلـى جَــدٍّ هُمَـامِ
عَجِبْتُ لِمَنْ لَـهُ قَـدٌّ وَحَـدٌّ
ويَنْبُو نَبْـوَةَ الـقَـضِمِ الكَـهَـامِ
ومَنْ يَجِدِ الطريقَ إلى المعالي
فـلا يَذَرِ المَطِيَّ بـلا سَنَـامِ
ولمْ أرَ في عيوبِ الناسِ عَيْباً
كنقصِ القادرِينَ على التَّمَـامِ

وهو فيهـا يعبر عن خلا صـة تجارب أفادها مـن صلاته بالنـاس ومعايشته لهم ، ومعرفته طبائعهم ونقائصهم ونقاط الضعف فيهم ، وقد صور تلك النقائص تصوير الكاره لها المتعجب من ارتياح بعض الناس لها ، وقبولها لأنفسهم على الرغم من أن شمائل الرجولة الحقة لن تكلفهم شيئا ، ولن يعسر عليهم تحصيلها أو بلوغ غاياتها .

٤) أكثر أبو الطيب في قصيدته التي معنا هنا من إيراد الجمل الخبرية التي تلائمُ معانيه ، وقد أكد كثيرا منها بألوان من المؤكدات ليحقق معانيه ، ويقررها في أفهام سامعيه . ومع ذلك لم تخل القصيدة من اصطناع الجمل الإنشائية عند مقتضياتها وفي مواضعها ، ومنها الأمر الذي يفيد التحدي والرغبة في المخاطرة بالنفس والقدرة على تخطي الصعاب في قوله :

ذراني والفلاة ..... ووجهي والهجير ...

وهو في الوقت نفسه يؤكد ما ذكره في البيت السابق من أنه ينبغي ألا يلام ، أو يقاس مسلكه وفعله بمقاييس الأشخاص العاديين .

ومن تلك الأساليب أيضا : التمني في قوله :

ألا يا ليت شعر يدي ...

وقـولـه :

وهل أرمـي هـواي براقصات ...

وهو استفهام يفيد التمني .

٥) الصور في القصيدة كثيرة متنوعة برع أبو الطيب في التقاطها ، وأجاد في اصطناعها لتجسد معانيه ، وتبرز أفكاره ، وتوحي بمقاصده ، كما جعلها تحمل دلالات عميقة ، وتشير إلى معان وغايات يحتاج المعبر عنها بالأسلوب العادي إلى كلام كثير وشرح طويل .

والصور في هذه القصيدة منها ما هو من قبيل الصور الجزئية التي تأتي في إطار محدود ، ومنها الصور الكبرى أو اللوحات التي تحتشد فيها الألوان والأضواء والظلال ، ومن النوعية الأولى قولـه :

وملني الفراش ....

إذ تجسم الفراش في صورة إنسان اعتراه الضجر والملل .

ومنها : تصوير حاله وقد أحاطت به الهموم والأرزاء وهي أمور معنوية تستشعرها النفس وتكترب لها ـ بصورة مادية محسة تجسمت فيها هذه المعنويات فأحاطت بجسمه وازدحمت من حوله ، وهو في عجب من وصول الحمى إليه على الرغم من إحاطة تلك الأرزاء به .

وفي قوله :

وهل أرمي هواي براقصات ..

تجسيم للأماني في صورة محسة وكأنها هدف مقام يُسدد إليه سهامه ليصيبه ، وسهامه التي سيصيب بها ذلك الهدف هي الإبل النجائب التي ستبلغه ما يريد .

وفي القصيدة كذلك صور كبرى ولوحات مشوقة منها :

= ما صور به المتنبي نفسه في بداية القصيدة في صورة الفارس الذي يقتحم الأخطار ، ويجوب الصحاري غير هياب ، لأنه يعرف كيف يتغلب على مصاعبها ، ويتجاوز أخطارها ومهالكها ، وقد حشد المتنبي لتلك الصورة مكونات جعلتها أكثر تميزا ووضوحا منها : اقتحام الصحراء بلا دليل ، والسير في وقت الهجير ، والاهتداء عند خفاء المسالك والدروب بعيون الرواحل ، ومعرفة أماكن المياه من دلالات البرق ومواقعه في الأفق .

= أما تصوير الحمى بالصديقة الزائرة فهو من أبرع ما صورها به شاعر ، وقد أفاض المتني في تلك الصورة وموه برموزها في تلك القصيدة ، حتى ليخفى على من لا يعرف سياقها وفكرتها أن الشاعر يتحدث عن صديقة زائرة على الحقيقة .

= وهنالك أيضا تصوير حاله في مقامه بمصر وما جلبه عليه من أضرار في نفسه وجسمه بحال الفرس الفائق القدرة على السبق والكر والفر عندما يحال بينه وبين ممارسة مهامه فيتسلل إليه الوهن ، ويعتريه الخمول فيغدو عاجزا عما كان يحرزه من سبق ويناط به من إنجاز .

٦) إيقاع القصيدة سريع معبر ، والمحسنات البديعية فيها متعددة وقد أتت في مواضعها لا تكلف فيها ولا اعتساف . ومنها المطابقات والمقابلات والتجنيس وحسن التقسيم ومن أمثلتها :

المجانسة الاشتقاقية بين " ملومكما " والملام " والجناس الناقص بين " الملام " و" الكلام " في البيت الأول ، والمطابقة بين " الإناخة و" المقام " في البيت الثالث .

وأشباه ذلك كثيرة في القصيدة لا تخفى على المتأمل .

ومن أمثلة حسن التقسيم قوله :

قليل عائدي ـ سقم فؤادي ... كثير حاسدي ـ صعب مرامي

• • •

مختارات أدبية

للأستاذ الدكتور

عبد الجواد محمد المحص

الاختيار الرابع
من القصص القرآنى
ـ قصة موسى مع الخضرـ

تمهيد:

لا يمكن لكاتب يتحدث عن مجالات الجمال فى كتاب الله الحق الخالد أن يغفل الحديث عن الجانب القصصى فيه، وما يحتويه من معالم الجمال فى سرد الأحداث، وتصوير الشخصيات، وعرض المحاورات، وغيرها من العناصر التى تقوم عليها القصة القرآنية.

وهناك سببان يحتمان الحديث عن جمال القصة القرآنية هما:

أولاً: أن القصص القرآنى يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الأدبية، عارضا أمامها أحداثا من التاريخ، وصفها منزلها جل شأنه بأنها من (أنباء الغيب) التى ما كان يعلمها النبى ولا أحد من قومه قبل نزولها، فهى وثائق تاريخية، بل أوثق ما يكون بين يدى التاريخ من وثائق على مر العصور وكر الدهور.

ثانياً: أن القصص القرآنى قد نعته منزله بأنه (أَحْسَنَ الْقَصَصِ)، حيث قال جل شأنه: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) يوسف الآية الثانية، والمعنى: أن القصص القرآنى هو الغاية فى الحسن والكمال والجلال.

ولما كان الحديث عن القصص القرآنى وما فيه من جمال وجلال وكمال حديثاً متشعب الأطراف، يحتاج إلى مجلدات وأسفار، فإنى آثرت أن أقف عند خصوصية يتفرد بها ويتميز هى جمعه بين الدين والأدب والتاريخ:

فنحن إذ ننظر إلى القصص القرآنى من زاوية الأحداث التى يعرضها أو يشير إليها، يتأكد لدينا أن هذا القصص قصص تاريخى يستمد لبناته من حقائق التاريخ، بالقدر الذى يؤدى الوظيفة الأساسية المقصودة من البيان القرآنى العظيم.

والقصص القرآنى يتضمن توجيهات دينية تدعم سائر ما جاءت به الشريعة المحمدية من مبادئ وعقائد، وكل ما أنكرته من خلق وعادات وآراء زائفة، وعقائد وعبادات باطلة.. نلمح ذلك ونحسه أغراضا وأهدافاً تأتى بين طيات هذا القصص وفى ثناياه وحواياه.

والقصص القرآنى قصص أدبى باعتبار قالبه البيانى الذى يصب فيه أحداثه، أو باعتبار اشتماله على سائر مقومات القوة الفنية فى أرقى درجاتها، وعلى سائر أسباب التأثـير التعبيرى التى عرفها المخلوق، وما سوف يعرف، وهو الأستاذ الحق لكل أدباء القصة، أينما حلوا، وفى أى زمان هلوا.

على أن هذا القصص فى مجموع آياته التى تزيد على ألف وخمسمائة يمثل ربع القرآن الكريم – كتاب العربية الأكبر – ذلك الذى جعل الجمال الأدبى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى، فخاطب فى هذا القصص وغيره من الجوانب التى تضمنتها حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الأدبية، معتمداً على أن الدين والأدب صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس، وعلى أن أشد المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلوب ما عرض فى أسلوب قصصى جذاب يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف، ويملك القدرة الباهرة على إخراج قارئه أو سامعه من حدود نفسه إلى تلك الأجواء، فيعيش فيها، ويندمج معها.

ويصعب على المرء أن يبرز هذه الثلاثية الرائعة (الدين والأدب والتاريخ) فى كل قصة قرآنية، فإن ذلك يحتاج إلى أسفار تنوء بحملها الجبال.

لذلك أكتفى – هنا – بقصة واحدة، أسوقها مثالاً يغنى القارئ عن عشرات الأمثلة، ألا وهى قصة موسى مع العبد الصالح الذى يسميه المفسرون (الخضر) عليه السلام.

وقد آثرتها هى بالذات، لأنها وثيقة تاريخية فريدة، حتى إن اليهود الذين يدعون الإحاطة التامة بأخبار موسى، لم يعرفوها إلا بعد نزولها على الرسول عليه السلام. ونبدأ أولاً بما قاله الحق فيها، ثم نتبع ذلك بالدراسة والتحليل الكاشفين عما فيها من أحداث تاريخية سيقت بلغة الجمال الأدبية، تحقيقاً للعبرة الدينية.

قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا* فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا* فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا* قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا* قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا* فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا* قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا* قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا* فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا* قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا* أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا* وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا* وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً

مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا.

(سورة الكهف: ٦٠ – ٨٢)

هذه القصة الفريدة تمثل حلقة من سيرة سيدنا موسى عليه السلام الذى تحدثت عنه التوراة، ومع ذلك فإن ما جرى بين موسى والخضر من أحداث لا نسمع له ذكراً فى الكتب التى بين أيدى اليهود والنصارى اليوم.. فهى صفحة ساقطة من تاريخ موسى فى هذه الكتب. إنها وثيقة تاريخية لا توصف إلا بأنها أوثق ما بين يدى التاريخ من وثائق، ولم ترد إلا فى القرآن الكريم.

والرائع حقاً: أن الخضر عليه السلام قد قال لموسى – وهو يودّعه فى نهاية الرحلة: (يا موسى! دعك من اللجاجة، ولا تمش فى غير حاجة، واشتغل بعيوبك عن عيوب الناس) مشيراً بذلك إلى أن جميع ما اعترض عليه موسى، ولم يصبر حتى يعرف وجه الحكمة منه، قد جرى لموسى فى حياته؛ بل إن كلا من الأحداث الثلاثة (خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار بدون أجر)، قد حدث ما يقابله فى حياة موسى وسيرته، فخرق السفينة الذى خاف موسى على أهلها من الغرق يقابله نجاته وهو رضيع من الغرق بعد أن وضعته أمه فى التابوت، وألقته فى اليم، فمن نجاه قادر على أن ينجى هؤلاء.

وقتل الخضر للغلام بغير نفس، يقابله فى تاريخ موسى قتله للمصرى حين دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته، والآخر من عدوه، فوكزه موسى، فقضى عليه. وكان هذا قبل أن يوحى إليه. وبناء الخضر للجدار بدون أجر ليحفظ مال اليتيمين، يقابله: سقيه لغنم بنتى شعيب بدون أجر، بل إن شعيبا أرسل إحدى بنتيه تدعو موسى ليجزيه أجر ما سقى لهما. فالأحداث الثلاثة التى نراها فى سورة الكهف نرى ما يقابلها، فى حياة موسى، وقد جاءت بالترتيب نفسه فى سورة القصص، حيث قال سبحانه: (**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه** .... إلخ) القصص: ٧ وقال: (**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان** .. إلخ) القصص: ١٥، وقال: (**ولما ورد ماء مدين**... إلخ) القصص: ٢٣، ٢٤، فترتيب الأحداث هنا كترتيب الأحداث هناك.

وعلى كل حال فإن هما يلفت النظر ويسترعى الانتباه: أن القرآن الكريم – فى قصصه المعجز – قد ركز على سيدنا موسى – عليه السلام – تركيزاً قوياً، حتى إن المواضع التى ذكر فيها اسمه قد بلغت مائة وستة وثلاثين موضعاً، توزعت على أربع وثلاثين سورة. ولم يظفر اسم نبى فى القرآن الكريم بمثل ذلك التصيب الأكبر الذى ظفر به سيدنا موسى عليه السلام.

ويعد النص السابق الذى اخترناه من سورة الكهف إحدى حلقات هذه القصة الطويلة التى أوردها القرآن الكريم عن هذا الرسول الكريم فهى تمثل قصة قصيرة من قصص هذه القصة الطويلة، وتتكون – كما رأينا – من ثلاث وعشرين آية لم ترد فى غير سورة الكهف.

ولقد جاء ذكرها فى هذه السورة – بالذات – صورة رائعة من صور الجمال ومعلماً بارزاً من معالم الإعجاز القرآنى، ومظهراً من مظاهر العناية الإلهية الفائقة بوضع القصة فى المكان الذى يناسبها ويليق بها من سور القرآن الكريم.

فالقصة – من ناحية – تحتوى على "جملة من الحقائق فى كهوف، ولكن الكهوف التى تستر الحقيقة تأتى أولاً، ثم بعد ذلك تأتى الحقائق، ومن هنا، فإن سيدنا موسى – عليه السلام – عندما يرى الكهوف، ولا يرى الحقائق التى تسترها لا يستطيع الصبر على ذلك... العبد الصالح حكم بعلمه الذى علمه الله، وموسى عليه السلام حكم بما يعلمه، ولذلك اصطدم الحكمان، فالعبد الصالح كان يقوم بعمل خير (حقيقة مستورة فى كهف ظاهره الشر)، وموسى كان يرى فى هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط، ويحكم به، لأنه لا يعلم بواطن الأمور"(١).

والقصة – من ناحية أخرى – تمثل الحكمة الكبرى التى لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار، فهى – إذن – ترتبط بقصة أصحاب الكهف والرقيم فى ترك الغيب لله الذى يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار.. لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا

(١) معجزة القرآن للشيخ/ محمد متولى الشعراوى: ص ٢١٦، كتاب اليوم الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم ١٩٨١.

بمقدار"[١].

والقصة – من ناحية ثالثة – تشير إلى العلم الذى يعمق الإيمان بالله علام الغيوب... العلم اللدنى الذى لا ينكشف إلا لمن آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علماً.

ومن ناحية رابعة، فإن سورة الكهف قد احتوت – من بين ما احتوت – على قصتى أصحاب الكهف، وذى القرنين، وهما قصتان نزلتا حينما أوعز اليهود للمشركين أن يسألوا النبى ﷺ عنهما، وعن الروح، وقالوا لهم: (إن أخبركم بهن فهو رسول فاتبعوه، وإلا كان رجلاً متقولاً تصنعون به ما بدا لكم). فلما أنزل الله سورة الكهف مشتملة على قصتى أصحاب الكهف وذى القرنين، جعلها مشتملة – أيضاً – على قصة سيدنا موسى مع العبد الصـــــالح لينبه المشتركين واليهود معاً، وكذلك المسلمين، على أن النبى ﷺ لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأنباء، فها هو موسى – مثلاً – الذى كان يعترف به اليهود فى المدينة ولا يعترفون بمحمد رسولاً، يلتقى مع الخضر عليه السلام، ويخفى عليه تفسير الأحداث الثلاثة التى وقعت من الخضر، بل إن اليهود أنفسهم لم يعرفوا هذه القصة إلا عن طريق القرآن الكريم.

ومن ناحية خامسة، فإن الآيات التى سبقت هذه القصة فى سورة الكهف، قد ذكرت أن الإنسان أكثر شئ جدلاً، يثق فى آرائه، ولا يعتد بغيره، وحين تأتيه الرسل بالآيات مبشرين ومنذرين يلجأ إلى الجدال بالباطل، ليدحض به الحق معرضاً عنه استهزاء وسخرية، ثقة فيما يتعاطى من الجدل والمراء، ناسياً أن لكل علم نهاية، وأن ذوى اللجاج من هؤلاء لا يبلغون من العلم شيئاً مهما ادعوه[٢]، فناسب ما ذكره القرآن الكريم فى هذه الآيات أن يذكر من بعده قصة موسى مع العبد الصالح، لأنها قصة تدل على أن نبى الله المختار موسى، وكليمه المجتبى لم يصل فى العلم إلى مبلغ ما تمكن به سواه من البصر والدراية والنفاذ.

فلكل هذه الأسباب وغيرها من مرادات الحكيم الخبير ذكرت هذه القصة فى

---

(١) فى ظلال القرآن"لسيد قطب: مجلد ٤ ص ٢٢٨٢ "بتصرف يسير".
(٢) البيان القرآنى، د/ محمد رجب البيومى: ص ٢١٥، منشورات مجمع البحوث الإسلامية – ط دار النصر للطباعة، ١٣٩٣هـ/١٩٧١م.

سورة الكهف دون غيرها من سور القرآن الكريم.

ولقد عرضها القرآن الكريم - كتاب العربية الأكبر - عرضاً فريداً يعجز الأدباء والبلغاء عن الإتيان بمثله. فقد صورت ببراعة لا مثيل لها فكرة الرحلة فى طلب العلم والاجتهاد فى كشف الحقائق والأسرار، وكانت فى هذا المجال من أروع القصص الذى يمكن تسميته (بقصص الموازنة بين ما نعلم وما لا نعلم، وما ندرك من الأسباب الظاهرة، وما يغيب عنا من الأسباب الخفية).

إنها قصة رحلة علمية تنبئ بسبق القرآن الكريم إلى ما يسمى فى عصرنا الحديث بأدب الرحلات.. وهى رحلة علمية يخلص فيها - كما نرى - التابع والمتبوع الطاعة لله رب العالمين، ولا يبتغى فيها الأستاذ عن تلميذه سوى الأجر من الله.

إنها قصة تعلمنا - من بين ما تعلم - كيف نتحمل المشقة فى تحصيل العلم، وكيف نذلل كل الصعوبات التى تعترضنا فى التحصيل، وكيف يستدر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل فى تبعيته، ويلح فى ذلك حتى يأذن له بحسن الصحبة. وكيف يتجمل طالب العلم بالتواضع وحسن الاستجابة والإنصات لأستاذه، والاسترشاد بنصائحه، والتزام أوامره، والمسارعة بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه نحوه.

والقصة تعلمنا - من بين ما تعلم - كيف نتحمل المشقة فى تحصيل العلم، وكيف نذلل كل الصعوبات التى تعترضنا فى التحصيل، وكيف يستدر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل فى تبعيته، ويلح فى ذلك حتى يأذن له بحسن الصحبة. وكيف يتجمل طالب العلم بالتواضع وحسن الاستجابة والإنصات لأستاذه، والاسترشاد بنصائحه، والتزام أوامره، والمسارعة بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه نحوه.

والقصة تعلمنا كذلك كيف يبصر الأستاذ مريديه بآداب التعلم، وكيف يرد الصواب فى كل خطأ يقع فيه التلميذ، وكيف لا يتركه جاهلاً بمسائل الدرس، وقضايا العلم، وكيف ينسب العلم والفضل إلى الله فى كل ما يشرحه من دروس.

لقد أشارت القصة بتصويرها المعجز وإيماءاتها النفاذة إلى كل هذه الآداب وكل تلك الأصول فى التربية والتعليم والتهذيب.

ومما لا شك فيه: أن القصة - كما نرى - تمتاز بالإيجاز والشمول، والوضوح

والصفاء.. كما تمتاز بجاذبية العرض، وقوة النظم وإعجاز التصوير ودقة الاختيار للألفاظ والتعبيرات الموحية المؤثرة.

ويكفينا – فى هذا المجال – أن نشير – مثلاً – إلى روعة التعبير بلفظ (الفتى) عن (يوشع بن نون) خادم سيدنا موسى وعبده الذى رافقه فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة... وذلك أن لفظ الخادم والعبد والأمة يرفضه الخلق القرآنى، وينبو عنه الذوق الإسلامى، بدليل قول سيدنا محمد ﷺ: (لا يقل أحدكم فتاى وفتاتى، وليقل: عبدى وأمتى).

فالقرآن الكريم بهذا التعبير قد أضفى على (يوشع) أجمل لباس يتحلى به، وهو لباس الفتوة والشباب.. موطن الإعزاز فى الإنسان، وأنضر حلقات العمر.. وهو متلائم تماماً – ولو كان شيخاً وقتئذ – مع ما عهد إليه فى الرحلة من عمل، إذ كانت له مهمة لا ينهض بأعبائها إلا من كان فى قوة الفتى وعنفوان الشباب.. وهو بهذه الصفة قد استطاع أن يواصل السير مع رسول من أولى العزم أخذ على نفسه – ومعه فتاه – أن يظل سائراً حتى يلتقى بأستاذه (الخضر)، ولو أمضى العمر كله فى سبيل ذلك، فما أروع التعبير بالفتى فى هذه القصة المصورة لرحلة علمية شاقة طويلة..

ولننظر – أيضاً – إلى قوله تعالى: (آتِنَا غَدَاءَنَا)، وكيف لم يقل: (آتنى غذائى)، لأن الطعام مشترك بين موسى وفتاه، لا يختص به السيد تفضلاً، ثم يلقى نفايته وفضلته إلى الخادم، إذ ليس هذا من خلق الهداة[1].

ولننظر – كذلك – إلى قوله تعالى: (أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ)، وكيف لم يكن اللجوء إلى السهل من الأرض، وكان ذلك فى الإمكان حتى لا يتجشم موسى وفتاه المتاعب، لكنها رحلة العلم التى يركب فيها الإنسان أشق المراكب، ويصعد إليها أوعر الصخور، لأنه يقدر فى ذلك أن ثواب العلم على قدر المشقة.

ولله در الشاعر إذ يقول:

ومن طلب العلوم بغير كدّ ∴ سيدركها متى شاب الغراب!

وما أروع التصوير القرآنى فى قوله تعالى – على لسان موسى عليه السلام –

---

(١) أنظر: البيان القرآنى للدكتور/ محمد رجب البيومى: ص ٢١٦.

(هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا)؟ فسيدنا موسى شخصية فى القصة تمتاز بالأدب البالغ فى التعبير، فسيدنا موسى – كما نرى – لم يطلب التملذة مع سيدنا الخضر بأسلوب الطلب العادى، وإنما بأسلوب إنشائى طريقه الاستفهام الموحى بعدم الإلزام للأستاذ أو الإلحاح عليه فى قبول التلمذة على يديه.

ثم يبلغ الأدب بموسى: أنه لا يجعل التماسه العلم من الخضر تلمذة فحسب، وإنما تبعية مطلقة وامتثال لأستاذه مقابل بكلمة منه. على أن سيدنا موسى لا يطلب مجرد علم – فلديه من العلم الكثير – وإنما يطلب نوعاً خاصاً من العلم، ومن هنا لم يقل للخضر: (على أن تعلمنى مطلقاً) أو (على أن تعلمنى علماً)، وإنما قال له: (على أن تعلمنى مما علمت) فلفظ (من) للتبعيض، أى على أن تعلمنى بعضاً من الذى تعلمته، وكأنه يطلب نوعاً مما نسميه الآن بالتخصص أو الدراسات العليا. (عن مقال للدكتور/ عبد الحليم حفنى فى مجلة منبر الإسلام عدد المحرم ١٤٠٠هـ، ص ٣٠).

ونلحظ فى هذا التعبير القرآنى المعجز أيضاً: أن موسى يطلب العلم لغاية نبيلة وهدف محدد، وهو (الرشد) فليس علمه لمجرد الترف النفسى، أو للمكاثرة به، أو للعلم لذاته، وإنما ليصل به إلى غاية نبيلة محدودة وهى الرشاد الـــديـــنى. ويسترعى انتباهنا أن الحق سبحانه قال: (**فوجدا عبداً من عبادنا** ... الخ) فأتى بفاء العطف المرتبة لوقوع الأحداث، والدالة على نتيجة بحثهم، على حين أنه لم يأت بها فى قوله: (قال له موسى) فلم يقل: (فقال له موسى) فأفاد ذلك أن زمن رؤية موسى للخضر هو زمن قوله: (هل أتبعك) فسرعة حبه للعلم، واستعجاله للتعلم لم يتركا لفاء الترتيب والعقيب وقتــاً، فموسى طلب العلم والتبعية للخضر فى نفس الوقت الذى رأته فيه عيناه!!

وما أروع التصوير القرآنى فى قوله تعالى – على لسان العبد الصالح – (**لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)، فإنه تعبير كان الهدف منه تنبيه سيدنا موسى إلى حقيقة الفارق بين العلم اللدنى والعلم البشرى، فالعلم اللدنى ثقيل، ولن يصبر عليه موسى، ولن يصبر على اتباع الخضر بالتالى، ولما كان هذا الحكم يحوى شيئاً من الغرابة، أو عدم الاقتناع به؛ فإن الخضر لجأ إلى تحليل هذا الحكم وتعليله بقوله لموسى: (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا**

لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)؟!

ونظراً لأن الخضر كان على دراية تامة بثقل العلم اللدنى على موسى، فإنه قال له: (**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**). فنلحظ أن نغمة الشك التى يوحيها لفظ (إن) ليست منصبة على الاتباع ذاته، وإنما نبعت من دقة الخضر فى التعبير عن شئ يعلمه ويتوقعه، فهو يتوقع أن موسى لن يستطيع السكوت على ما يصدر عنه من أمور ظاهرها منكر، وإن كانت فى الحقيقة التى لا يدركها موسى خيراً معروفاً يثيب الله عليه.

هذا ويسترعى انتباهنا أن الحق سبحانه لم يصرح باسم الخضر، وإنما ذكره بصفاته الثلاث (**عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**) لأن العبودية هى أشرف المقامات، بدليل وصف رسولنا بها فى حديث الإسراء والمعراج، ولأن الرحمة هى الأساس الذى نبعت منه أفعال الخضر، فخرقه للسفينة رحمه بأصحابها المساكين، وقتل الصبى رحمة بوالديه، وبناء الجدار رحمة بالغلامين اليتيمين. وكذلك العلم للدنى هو العلم الذى تميز به الخضر، كذلك يسترعى انتباهنا فى إعجاز التصوير القرآنى لهذه القصة أن سيدنا موسى قد وصف خرق السفينة بأنه شئ إمر، أى عجيب، ووصف قتل الغلام بأنه شئ نكر، أى تنكره العقول والشرائع، ولم يصف بناءَ الجدار بإحدى هاتين الصفتين، وإنما عقب عليه بقوله: (**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**).

وكل هذه التعبيرات بلغت غاية الدقة، ولا يصلح أحد منها موضع الآخرُ، فلكل تعبير حكمة تخصصه بمكانه، فالحادث الثالث لا يتعارض مع الشريعة، أما الأول والثانى فيناقضان الأحكام الثابتة فى الشرائع الإلهية، فليس هناك شريعة تبيح لإنسان إفساد شئ مملوك لآخر، ولا قتل نفس بغير ذنب. ولما كان خرق السفينة التى لم يغرق منها أحد أهون من قتل الغلام الذى هلك بالفعل، فإن موسى وصف خرق السفينة بأنه شئ عجيب، ووصف قتل الغلام بأنه شئ منكر.

فما أروع الإعجاز فى استخدام الكلمات الخاصة بكل حدث من أحداث القصة.

كذلك يسترعى انتباهنا – فى قراءتنا لهذه القصة المعجزة – أن سيدنا الخضر عليه السلام، لما أراد ذكر العيب للسفينة نسبه لنفسه أدباً مع الربوبية فقال: (فأردت)،

ولما كان قتل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم، استتبع نفسه مع الحق، فقال فى الإخبار بنون الاستتباع (فأردنا) ليكون المحمود من الفعل - وهو راحة الأبوين المؤمنين من كفر غلامهما - عائداً على الحق سبحانه، والمذموم ظاهراً - وهو قتل الغلام بغير حق - عائداً على الخضر. وفى إقامة الجدار كان البناء خيراً محضاً، فنسبه الخضر للحق وحده، فقال: (فَأَرَادَ رَبُّكَ)، ثم بين أن الجميع من حيث العلم التوحيدى من الحق بقوله: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)[(١)].

ويسترعى انتباهنا - كذلك - أن الفعل المضارع المشتق من الاستطاعة قد جاء فى القصة مرة بالتاء هكذا: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا). وجاء مرة ثانية بدون التاء هكذا: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) أى هذا تفسير ما ضقت به ذرعا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء.

والحكمة من هذا التنويع فى التعبير: أن الأحداث التى وقعت من الخضر كانت قوية ثقيلة على نفس سيدنا موسى، ولكن لما فسر الخضر لموسى وبين ووضح هان عليه خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بدون أجر، ومن هنا قابل الخضر الأثقل فى التعبير بالأثقل فى النفس، والأخف فى التعبير بالأخف فى النفس[(٢)].

هذه لمحات بلاغية، وإشراقات بيانية وصور جمالية نستشفها حين قراءتنا لهذه القصة فى القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر.

أما عن عنصر الأحداث فيها فنجد أن القصة قد ركزت فى بنائها على أحداث غامضة، وخوارق رهيبة تنبهم وجوه الرأى فيها على كل مفكر، وإن كان موسى كليم الله عز وجل.

ولقد كان من أثر ذلك أن جاءت القصة مبهمة أعظم الإبهام، غامضة أشد الغموض، ولولا أن الأحداث الغامضة فيها قد فسرت فى الختام لظل الجو الداخلى لها مشحوناً بالأسرار، ملتفاً بالغموض والضباب.

---

(١) انظر فى ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى: ص ٢٨٤ دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩ (الطبعة الثالثة).

(٢) انظر فى ذلك: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٦٤/٣ ط دار إحياء التراث العربى - ومثله قوله تعالى: (فما اسطاعوا أن يظهروه) وهو الصعود إلى أعلى السد الذى بناه ذو القرنين أمام يأجوج ومأجوج (وما استطاعوا له نقبا) وهو أشق من ذلك؛ فقابل كلا بما يناسبه.

ونلحظ من التأمل فى الأحداث: أن الخوارق الرهيبة قد تجلت بصورة أكثر فى القسم الثانى من القصة (أى بعد لقاء موسى والخضر) أما فى القسم الأول فلم تكن هناك إلا خارقة واحدة تتمثل فى عودة الحوت المشوى المملح إلى الحياة وإلى اتخاذه سبيله فى البحر سربا. وقد بنيت القصة كلها على الخوارق، ليرى موسى بعينه كيف تكون المعجزات وخوارق العادات، وكان ذلك تمهيداً لرسالته المليئة بالخوارق كانقلاب العصا حية، وإخراج يده من جيبه بيضاء من غير سوء، وانفلاق البحر والحجر بالعصا، فبدى خوارق الخضر تدريباً عملياً لموسى، يتمرس من خلاله على رؤية المعجزات!!

ولقد اعتمدت القصة فى عرض أحداثها المتلاحقة المتتابعة على طريقة السرد وطريقة الحوار معاً، لكن عنصر الحوار الجذاب المفصح عن المشاعر والخلجات هو الغالب عليها.

ونرى الحوار فى البدء يدور بين موسى وفتاه، ثم بعد أن يؤدى الفتى دوره، ويختفى من مسرح الأحداث يدور الحوار ويحتدم بين أهم شخصيتين فى القصة وهما موسى والخضر عليهما السلام.

وحين نتأمل هاتين الشخصيتين الأساسيتين فى القصة نجد أنهما تصوران اتساع الهوة المنفرجة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فسيدنا موسى يقف وراء أسوار المحدود المشاهد، أما سيدنا الخضر فيتخطى الأسوار المحدودة إلى فضاء اللانهائية الرحيب، ليرى ما لا يراه الناظرون.

ولقد ظهر سيدنا موسى – ومعه فتاه يوشع بن نون – فى بداية القصة، أما الخضر فقد ظهر بعد ذلك، حيث أخذ مكان البطولة جميعاً، وفى ذلك دلالة على أن هذه القصة من القصص التى تظهر فيه الشخصيات شيئاً فشيئاً بتتابع.

ويسترعى انتباهنا: أن القرآن الكريم لم يذكر أسماء الشخصيات الواردة فى القصة – باستثناء موسى عليه السلام – وهذه ميزة كبرى من مزايا القص القرآنى، فإن أهم شئ هو العبرة والمغزى مهما اختلفت وتنوعت الشخصيات، ومن هنا نستخلص أن القرآن الكريم قد سبق إلى ذلك اللون القصصى المسمى عند النقاد المعاصرين (بالقصة ذات التوجيه المعنوى) وهى التى تتركز حول مغزى معين، وتعرض بالقدر الذى يبلغ هذا

المغزى، ويغفل فيها تحديد شخصيات الأبطال. كذلك تعد من قصص الكفاح المنتهية بتحقيق الآمال، إذ انتهت رحلة موسى الشاقة بلقاء الخضر والتلمذة على يديه(١).

ويلحظ الدارس للقصة أنها لم تحدد التاريخ الذى وقعت فيه أحداثها، من حياة سيدنا موسى عليه السلام: هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى إسرائيل، أم كان ذلك بعد خروجه بهم عنها؟ ومتى هذا الخروج قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة أم بعد ما ذهب بهم إليها، فوقفوا حيالها
لا يدخلون، لأن فيها قوماً جبارين؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين؟

كذلك يلحظ الدارس أن القصة لم تحدد المكان الذى وقعت فيه أحداثها إلا بأنه (مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) وبأن (مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) هذا عند الصخرة التى أوى إليها موسى وفتاه، واتخذ عندها الحوت سبيله فى البحر سربا. ولكن أين كانت الصخرة هذه؟ وأين كان مجمع البحرين ذاك؟ لا ندرى.

ومعنى هذا: أن القرآن الكريم قد حدد مكان هذه القصة ولم يحددها، لحكمة خاصة تستوجب أن نقف عند نصوص القصة كما وردت فى كتاب الله عز وجل، ولا نقلد أولئك الذين راحوا يتفننون فى النص على هذا المكان، فزعم بعضهم أنه ملتقى بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب، وزعم آخرون أنه فى أقصى بلاد المغرب عند طنجة(٢)... ألخ.

فكل هذه المزاعم وأمثالها من باب الحدس والتخمين، فضلاً عما بينها من تناقض وتضارب، وفضلاً عن أنها تصرفنا عما فى لفظة (مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) من معنى إشارى كريم زائد عن المعنى الأصلى لها، فهى تشير إلى حقيقة العبد الذى جمع الله فيه بحر الحقيقة – وهو الملح الأجاج الذى لم يقو على الشرب منه أحد إلا إذا تصفى من ملحه، أو مزج بماء النهر العذب الفرات، وهو الشريعة السائغة لجميع الناس، والتى لم يختلف عليها أحد لملاءمتها للعقل والعادة والعرف. والعبد الكامل قد مزج الله له البحرين، ليتناول منهما ما يحيى به كل الحقائق التى خلق منها، من جسم وحس، وعقل

---

(١) أنظر: القرآن والقصة الحديثة، لمحمد كامل حسن المحامى: ص ٥٨ وما بعدها. مطابع دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠م.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٥١/٣ ط دار إحياء التراث العربى (بدون تاريخ).

وروح، وهذا العبد الصالح يعطى من شرابه هذا من كان على شاكلته، ومن كان يريد الحياة الكاملـــــــة لجميـــــــــع قـــــواه ومعالمه[١]. ولعل مما يؤكد هذا التفسير أن البحرين لا يذكران فى القرآن إلا بهذا المعنى، أى أحدهما عذب فرات، والآخر ملح أجاج. قال تعالى: (**وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج...**) الفرقان: ٥٣.

ومهما يكن من أمر هذا المكان، فإن القصة قد اكتفت بالإشارة فى مطلعها إلى أن سيدنا موسى عليه السلام قد قرر أمراً مفاجئاً حين قال لفتاه: أنه سيمضى حقباً ومسافات حتى يصل إلى هذا المكان المسمى (بمجمع البحرين).

ونلحظ أن القصة لم تذكر لنا فى البدء سوى هذا، ثم نفاجأ بعد سطور من بدئها أن (**مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**) هذا كائن عند الصخرة. كذلك نلحظ أن القصة لم تذكر لنا فى البدء سر ذهاب موسى إلى (**مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**) وإصراره على الوصول إليه، لكننا نفاجأ – بعد سطور من بدئها كذلك – بهذا السر، حين يلتقى موسى بالخضر، ويطلب منه أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله رشدا.

فإذا كان النقاد اليوم يقولون: (إن عنصر المفاجأة فى القصة هو مصدر الجاذبية والتشويق) فها هو ذا القرآن الكريم يسبقهم إلى العناية التامة بهذا العنصر، فنحن نجد من تأملنا للجو الخارجى والداخلى لهذه القصة أن هذا العنصر يشيع فيها شيوعاً يكاد يكون تاماً، حتى لتحوطها المفاجآت من مطلعها إلى نهايتها، بل إن المفاجأة قد أعلنت عن نفسها قبل أن يلتقى التلميذ والأستاذ لأن موسى فوجئ بأنه – وهو كليم الله – لا يبلغ مبلغ بشر سواه فى العلم والمعرفة والاستبصار.

ومن هنا بادر إلى البحث عن الخضر، وما درى أنه سيتعرض (هو وقارئ القصة بالطبع) لمفاجآت أخرى، تصبح معها المفاجأة الأولى كلا شئ، وأى مفاجأة أكبر من أن يعمد الخضر إلى خرق سفينة لمساكين يعملون فى البحر، وإلى قتل نفس زكية حرم الله قتلها بدون ذنب وإلى بناء جدار بدون أجر فى قرية سائر أهلها بخلاء أبوا أن يضيفوهما.

---

(١) مواقف بعض الرسل فى القرآن الكريم، محمد على سلامة: ص ٥٧ مطبعة استراند الحديثة. مصر ١٩٨٥م.

إن قارئ هذه القصة أو سامعها لا يستطيع أن يأخذ أنفاسه مرتاحاً بعض الراحة بعد أن يبتدئها، وإنما يحس بدافع يخلق عنده ألواناً شتى من التشويق الرائع، ويسوق نفسه إلى التطلع السريع لحل ما تضمنته القصة من مفاجآت متوالية، وألغاز خارقة، وما يزال كذلك حتى يفاجأ بما فوجئ به سيدنا موسى نفسه حين قال له الخضر: (هذا فراق بينى وبينك)، وعندئذ يشعر القارئ أن هذا البطل قد انتهى دوره، وأن القصة قد لوحت بقرب ختام، وأن القرآن الكريم قد احتوى على قصة محتشدة بالصراع والحركة والمفاجآت والأحداث، فضلاً عما فيها من إعجاز التصوير، وجلال التعبير، وروعة الأداء، وكمال الإحكام، وسمو المضمون، ثم روعة الرمز إلى حقيقة القدر الذى يسيطر على الكون بتدبيره الخاص وإرادته العليا وقدرته الخارقة المطلقة.

وهكذا يتضح لنا من خلال التحليل الأدبى لهذه القصة: أننا أمام قصة قرآنية عظيمة، تعد - بحق - مثالاً رائعاً لضرب من ضروب القصص فى القرآن الكريم. وفيها من صور الجمال والجلال والكمال ما يعجز البشر والجن عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً!!.

هذا وقد زعم الدكتور نجيب البهبيتى فى كتابه (المعلقة العربية الأولى): أن موسى فى هذه القصة ليس موسى بن عمران الذى أرسله الله إلى فرعون، وإنما هو موسى بن ميشا.. [1].

وهذا زعم يدحضه دليل من السنة النبوية الصحيحة، كذلك يدحضه دليل من التاريخ، ودليل من القرآن الكريم ذاته. أما الدليل من السنة، فهو ذكر هذه القصة فى صحيحى البخارى ومسلم، وفى الحديث: أنه موسى ابن عمران[2].

وأما الدليل التاريخى، فقد قال أهل العلم بالتاريخ: (لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك، فغيروا سيرتهم، وأفسدوا فى الأرض، وفشا فيهم السحر والكهانة، فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميشا

---

(١) انظر: المعلقة العربية الأولى، د/ نجيب البهبيتى: ١/١٤١. مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٤٠١هـ / ١٩٨١، نشر دار الثقافة.

(٢) انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى: ٦/٣٣٤، ٣٣٥ ط دار إحياء التراث العربى.

بن يوسف عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأداء أوامره وإقامة سننته وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتى سنة)[١].

وأضاف أهل العلم بالتاريخ: (أن موسى بن ميشا يسمى موسى الأول وليس هو صاحب الخضر عليه السلام، وإنما الصاحب هو موسى الثانى[٢].

وأما الدليل القرآنى، فنحن إذ ننظر إلى قصة موسى مع الخضر تجد فيها ما يؤكد أن موسى – هنا – هو موسى بن عمران الذى تحدث عنه القرآن الكريم فى مواضع عديدة، فنحن نجد سيدنا موسى فى هذه القصة يعد الخضر بالصبر وعدم السؤال عن شئ حتى يحدث له الخضر منه ذكراً، ولكنه حين يرى الخضر يخرج السفينة ينسى ذلك كله أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر منطقة العقلى، ويندفع مستغرباً غير صابر على فعلة الرجل، ثم يندفع مستنكراً حين يراه يقتل الغلام، ومعاتباً حين يراه يبنى الجدار دون مقابل فى قرية أهلها بخلاء.

ومعنى هذا: أن موسى فى هذه القصة ذو طبيعة انفعالية اندفاعية تغضب للحق، وتلك الطبيعة هى ذاتها طبيعة موسى بن عمران فى بقية ما قصه الله عنه فى القرآن الكريم، وكما تظهر من تصرفاته فى أغلب أدوار حياته، مثل: وكزه الرجل المصرى فى اندفاعة من اندفاعاته، ومثل سرعة انفعاله حينما علم أن قومه عبدوا العجل فألقى ألواح التوراة، وأخذ برأس أخيه يجره إليه.. وهذه الطبيعة لم يحدثنا التاريخ بمثلها عن موسى بن ميشا.

كذلك فإن هذه الأحداث التى فعلها الخضر كانت من بين ألف مسألة أعدها الخضر – بأمر الله – لموسى بن عمران، مما جرى عليه من أول ما ولد إلى زمان اجتماعه به، فإن حدث خرق السفينة الذى ظاهره الهلاك وباطنه النجاة من يد الملك الغاصب الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً، إنما كان – كما سبق القول – فى مقابلة التابوت الذى أطبق على سيدنا موسى فى اليم، فظاهره الهلاك وباطنه النجاة من فرعون. كذلك فإن أول ما ابتلى الله به موسى قتله القبطى بما ألهمه الله ووفقه له فى

---

(١)، (٢) قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للثعلبى: ص ١٤٤ ط شركة الشمرلى بالقاهرة ١٩٨٢.

سره وإن لم يعلم ذلك، ولهذا أراه الخضر قتل الغلام، فأنكر عليه قتله، ولم يتذكر قتله القبطى.. وقد أراه الخضر إقامة الجدار من غير أجر، فعاتبه على ذلك، ولم يتذكر سقايته من غير أجر لبنتى شعيب عليه السلام.

فهذه الأحداث الموسوية الخضرية تؤكد أن موسى المذكور فى سائر المواضع القرآنية التى تناولته إنما هو موسى بن عمران ليس غير.

وقد أشار الشيخ محيى الدين بن العربى إلى هذا المعنى الدقيق فى إحدى موشحاته، فقال:

أخـرق سفيـن الحسـن يـا نائـــم

واقتـــل غلامـــاً إنـــك الحاكـــم

ولا تكـــن للحائـــط الهـــــادم

ومسك الختام خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع

قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب[1]، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية[2] والعمد قود[3]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

---

[1] يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : وكان مسترضعًا فى بنى ليث. فقتله هذيل. فهو أول ما أبدأبه من دماء الجاهلية.

[2] السدانة : خدمة الكعبة، والسقاية : سقاية الحجاج.

[3] العمد : القتل العمد، والقود : قتل القاتل بمن قتل.

أيها الناس : «إنما النسيء[١] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله».

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان[٢] ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان[٣] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

---

[١] النسيء:شهر المحرم..كانوا يحرمونه عامًا ويحلونه عامًا آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر.

[٢] فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق "ورجب مضر" وقد قال النبى ذلك كما ورد فى هامش "السيرة النبوية" لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه رجباء من رجبت الرجل ورجبته. إذا عظمته. فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.

[٣] عوان : أسيرات أى عندكم بمنزلة الأسيرات.

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، قالوا : نعم، قال : فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر[١].

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٢].

---

[١] للفراش : أى لصاحبه، وللعاهر أى أن هذا مقضى به رغم أنفها.

[٢] فى رواية ابن هشام جاء فى آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم ... اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

الدراسة والتحليل

أ- نظرات فى مضمون الخطبة :

فى موقف تاريخى خالد، وفى مشهد مهيب رائع، وفى يوم من أيام الله المحرمة، وفى ساحة عرفات المطهرة، وفى حجة البلاغ أو حجة الوداع، ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وهتف فى الجموع الخاشعة التى تحيط به، يبلغ الناس وحى الله، ويلقى إليهم دستور الحياة، فى آخر لقاء مع أضخم حشد من جموع المؤمنين، فقد حرص -صلوات الله وسلامه عليه- على أن يوصيهم وصيته الجامعة، فلعله لا يلقاهم بعد عامه هذا ! ولعله لا يقف بينهم بعد موقفه هذا ! فنادى فيهم آمرًا بالبر والمعروف، داعيًا إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ناهيًا عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظمهم لعلهم يذكرون، وكان الذين استمعوا لهذه الخطبة الجامعة نحو مائة ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم ورسولهم.

وفى الحق أن الرسول الكريم لم يكن يخطب يومها فوق مجرد ناقة، أو على ظهر بعير، ولم يكن يقف فى رقعة من الأرض محدودة، أو بين جموع من الناس معدودة، وإنما كان يخطب من فوق أعلى وأعظم منبر، تهتز أعواده بأبلغ وأجمع كلمات يلقنها الرسول الضمير الإنسانى، ويصبها فى سمع الزمن، ويلقيها فى فم الدنيا، لتطوف أرجاء الأرض هادية داعية إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصًا على أن تصل كلماته إلى كل سمع وتمس كل قلب، فكان يستعين برجل من صحابته هو ربيعة بن أمية بن خلف فكان يصرخ فى الناس ويقول يقول رسول الله، حتى تذاع الخطبة فى

أرجاء الوادى الفسيح فيقول الرسول له : قل لهم أيها الناس ... إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لكم : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقولون : الشهر الحرام أى بلد هذا ؟ فيقولون : البلد الحرام ... أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر. فيقول مؤكدًا حرمات الله : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

ولقد جمعت هذه الخطبة الجامعة، أصول الدين، وقواعد البر، ومنهج السلوك، ونظمت علاقة الإنسان بربه، ونفسه، والمجتمع الذى يعيش فيه ... إنها أعلنت الإنسان قبل أن تعرف دساتير الأرض ما هى حقوق الإنسان .. ؟ إنها رسمت الطريق، وأوضحت المعالم، وبينت حدود الله فقد ظلم نفسه ! ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان الناس فقد جاء بها القرآن وطبقها الرسول فى المجتمع المسلم، ولكن ركزعليها الرسول قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل ساطعة متوهجة لا تهمل ولا تنسى.

ولنقترب الآن من هذا التراث الغالى، لنقف مع مبادئه وقفات تكشف لنا عن عظمة الإسلام ونبى الإسلام. تلك المبادئ هى :

١- الحمد لله : أقوى أسباب القوة، وأعظم وسائل الاستعانة به والتوكل عليه. والتوبة من الذنوب، والتعوذ من شرور النفوس وسيئات العمل، تخليص من معوقات الخير، وإزاحة للعقبات التى تعترض طريق السائر إلى الله.

٢- الوصية بتقوى الله والحث على طاعته، وهو عماد الحياة الكريمة، وأقوى العدة على العدو، وأعظم المكيدة فى الحرب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا

اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد : ٧، ويقول ﷺ «إن الله عز وجل يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه» رواه البخارى ومسلم.

٣- حث الناس على أن يتدبروا ما يلقى إليهم، وأن يعقلوه، ويفتحوا له قلوبهم وعقولهم، فقد أخبرهم النبى ﷺ أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا وفى موقفه هذا، مما يجذب انتباههم، ويوقظ وعيهم، حتى يستوعبوا النصيحة، ويحرصوا عليها أشد الحرص، فلقد أحس ﷺ باقتراب أجله فأحب ألا يلقى ربه إلا وقد أدى حق البلاغ لهذه الأمة الكريمة التى صنعها على عين الله حتى تمتد بها مسيرتها الحضارية على صراط الله العزيز الحميد.

٤- حرمة الدماء والأموال، فكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، ولقد نهى الإسلام أشد النهى عن قتل النفس بغير حق وجعل جزاء القاتل الخلود فى النار قال تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء : ٩٣، والقتل جريمة نكراء، يهتز لها العرش، وتضطرب منها الدنيا ففى الحديث الشريف «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» رواه النسائى والترمذى والقاتل لاحظ له من رحمة الله ومغفرته : «لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» رواه البخارى وأبو داود «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا» رواه أبو داود النسائى. والدماء أول قضية يفصل فيها القضاء، بين يدى رب الأرض والسماء يقول ﷺ : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» رواه الخمسة إلا أبو داود.

وكما حرم الإسلام قتل النفس بغير حق، حرم أيضًا اغتصاب الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ النساء : ٢٩.

وفى الحديث الذى رواه الشيخان : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»، ويقول عليه الصلاة والسلام : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : «وإن كان قضيبًا من أراك» رواه مسلم ! وبهذا أعلن الرسول الكريم قداسة الحقوق الإنسانية، وأرسى دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ.

٥- لقاء الله والسؤال عن الأعمال يوم القيامة، مما يدعو إلى محاسبة النفس والاستعداد للعرض على الله، والإقبال على الطاعة، ومجانبة السيئات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الحشر : ١٨، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المجادلة : ٦، وفى الحديث الشريف : «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» رواه الترمذى.

٦- تبليغ الرسالة والإشهاد على ذلك من الله ومن الحاضرين وفى إحدى الروايات أن الرسول ﷺ كان إذا قال : ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد كان يشير بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس أى يردها

إليهم، ليؤكد هذه الشهادة وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة : ٦٧.

٧- وجوب أداء الأمانة وهى كل واجب على الإنسان نحو ربه أو نفسه أو الناس وتشمل كل نعمة أنعم الله بها على عبده، فعليه أن يحسن استعمالها فى مرضاة الله ... إنها الدين كله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء : ٥٨، وعن أنس -رضى الله عنه- قال : «ما خطبنا رسول الله إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد.

٨- إهدار الربا والثأر وهما من أسباب الدمار، واضطراب الأمن، وقد حرّم الله الربا بجميع صوره ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة : ٢٧٥، ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ البقرة : ٢٧٦، وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله» رواه مسلم. زاد الترمذى وغيره «وشاهديه وكاتبه» والأخذ بالثأر يفضى إلى الإخلال بالأمن، ويؤدى إلى الفوضى فى القصاص، حيث يترتب عليه قتل الأبرياء، وقد قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة : ١٧٩.

وكل من حرص على الأخذ بالثأر، أو أعان على القتل بالإرشاد أو

إحضار آلة القتل، أو التستر على القاتل، فحكمه حكم القاتل في القصاص في الدنيا، والعقاب في الآخرة، يقول ﷺ : «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن، لأكبهم الله في النار» رواه الترمذي. وقد أهدر الرسول ﷺ ربا عمه ودم ابن عمه لأن ذلك أدعى إلى امتثال أمره، حيث بدأ بنفسه وأهله في تطبيق مبادئ الإسلام وهكذا كان الأنبياء جميعًا، يسبقون الناس إلى امتثال ما يأمرون به، واجتناب ما ينهون عنه يقول شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود : ٨٨.

وهكذا أخبر الرسول ﷺ أن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله أي مردود وباطل وكان العباس من أغنى التجار وأوفرهم مالاً وأوسعهم تجارة، كما أخبر أن كل دم في الجاهلية موضوع، وأن أول دم يضعه دم ابن عمه عامر بن ربيعة، فقد كان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل وهو صغير يحبو أمام البيوت وهي في حرب مع بني سعد، أصابه حجر فقتله، أو أصابه سهم لا يعرف راميه فقتل.

٩- القضاء على مآثر الجاهلية : أعلن الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- أن مآثر الجاهلية موضوعة وهي المآثر الضارة، فقد جاء في رواية أخرى: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» أي لا قيمة له كالشيء الذي يداس عليه وذلك كالعدوى والطيرة والهامة وصفر .. إلخ.
أما المآثر النافعة، فقد أقرها الإسلام وحافظ عليها، وذلك مثل السدانة وهي خدمة الكعبة، والسقاية والمراد بها سقاية الحاج.

١٠- حكم القتل العمد والخطأ : فالعمد أن يقصد من يفعله آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به وفيه القود وهو القصاص ويجوز لولى الجناية قبول الدية. والخطأ أن يفعل ما يجوز له فعله مثل أن يرمى ما يظنه صيدا أو يرمى غرضًا فيصيب آدميًا لم يقصده بالقتل وحكمه كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ النساء : ٩٢.

وشبه العمد أن يقصده بما لا يقتل غالبًا كمن ضرب غيره بسوط أو عصا أو حجر صغير أو لكزة فى غير مقتل. وفيه الدية وهى مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، وتدفع الدية من نوع ما يملكه دافعها لحديث أبى داود عن جابر : «فرض رسول الله ﷺ فى الدية على أهل الإبل مائة من الإبل وعلى أهل البقر مائتى بقرة وعلى أهل الشام ألفى شاة».

١١- انتهاء عبادة الشيطان بأرض الوحى : فقد دالت دولة الوثنية بظهور الإسلام، وبطل عمل الشيطان فى دعوة الناس إلى طاعته، ولم يبق أمام الشيطان إلا أمور يستسهلها الناس وهى خطيرة، وهى التحريض على الشقاق، وإلقاء الفتنة لبث الخلاف فى صفوف الموحدين فعليهم أن يحذروه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة : ٢٠٨، وعليهم أن يعتصموا بالله وأن يستمسكوا بالوحدة فهى قوة وعزة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران : ١٠٣، ألا ما أكثر قوى البشر وعملاء الشيطان

التى تتربص بالمسلمين الدوائر، تريد أن تحطم دينهم وتقوض حضارتهم، فعلينا أن نسد الطريق على مؤامرات الأعداء ولا نجعل للشيطان مكانًا بيننا.

١٢- تحريم التلاعب بالأشهر الحرم، ووجوب احترام الزمن، بأن يكون على هيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وقد حرم الله النسيء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة. والنسيء زيادة فى الكفر أى كفر آخر ضموه إلى كفرهم ليواطئوا أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة.

١٣- حقوق النساء وواجباتهن، وتأديبهن عند النشوز، والوصية بهن لضعفهن: وفى تقرير هذه الحقوق والواجبات بين الزوجين حفظ لكيان الأسرة، والأسرة لبنة فى بناء المجتمع، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها، فعلى المرأة أن تطيع زوجها، وتحافظ على ماله وعرضه، فلا تدخل بيته أحدًا إلا بإذنه وأن تلبس لبسًا من العفة وتصون نفسها من مواطن الشبهات فإن خالفت هذا المنهج الإسلامى فقد أذن الله فى تأديبها وذلك بالهجر فى المضجع أو ضربها ضربًا غير مبرح أى غير مؤثر ولا شاق، وإن أطاعت فلها حقها بتوفير ما تحتاجه من طعام وكسوة ونفقة بالمعروف .. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم.. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء،

وبذلك أكد الرسول الكريم حقوق المرأة، ورد عليها كرامتها لأنها لقيت من قبله ضروبًا من العنت وألوانًا من المهانة ..!

١٤- ميراث رسول الله ﷺ : لقد ترك فينا كتاب الله وسنة نبيه، محجة بيضاء، وأمرًا بينًا، وصراطًا مستقيمًا لا يزيغ عنه إلا هالك ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: ٦، ٧.

١٥- المسلم أخو المسلم : فلا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، ولا يأخذ منه شيئًا إلا عن طيب نفس. يقول ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه مسلم. وبهذا أعلن رسول الإسلام الحقوق الإنسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية.

١٦- خطر الانتكاس والعودة إلى الكفر بالتناحر والتضارب فقد تركنا رسول الله ﷺ أمة واحدة، ولكن مؤامرات الأعداء ودسائس الاستعمار تعمل على التفريق بيننا، جريًا على دستورهم "فرق تسد" والرسول الكريم يحذرنا من أن نعود بعده متباعدين يضرب بعضنا رقاب بعض فاجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف هما الوسيلة لبقاء الأمة وحفظ كيانها والاختلاف طريق الضعف والانهيار، يقول ﷺ : «لا ترجعوا بعدى

كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه الترمذى. ويقول : «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية» رواه البخارى.

١٧- وحدانية الألوهية، ووحدة الأصل لجميع الناس : فإن للناس ربًا واحدًا، وهم مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم يرجعون فى النهاية إلى أصل واحد هو آدم أبو البشر وآدم من تراب وهذا يدعو الناس إلى أن يعيشوا على هذه الأرض أخوة متعاونين لا متعادين ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات : ١٣.

١٨- تحديد المواريث وحكم الوصية : حيث بين الرسول الكريم أن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء : ١١، ولقد بينت الآيات الواردة فى سورة النسٰاء نصيب كل مستحق فى الميراث، وقد فرض الإسلام العمل بهذه الأنصباء المقررة فى كتاب الله وسنة الرسول، يقول النبى ﷺ : «أقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله تعالى» رواه مسلم وأبو داود. وتفضيل بعض الأولاد على بعض، وإعطاء الذكور دون الإناث، تفرقة ظالمة، وتصرف حرام، لأنه مدعاه للعداوة والحقد الدائمين وقد قال ﷺ : «سووا بين أولادكم فى العطية ولو كنت مفضلاً أحدًا

لفضلت النساء» رواه الطبراني والبيهقي. وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : انطلق بى أبى يحملنى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أشهد أنى قد نحلت النعمان كذا وكذا من مالى فقال : «أكل بنيك قد نحلت مثل هذا ؟ قال : لا، قال : فأشهد على هذا غيرى، ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء، قال : بلى، قال: فلا إذًا» وفى رواية «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم» رواه الخمسة.

وبين الرسول أيضًا أنه لا وصية لوارث، وهذا محمول على عدم إجازة الورثة ذلك، أما إذا أجاز باقى الورثة العصبة فهى صحيحة، لحديث الدارقطنى «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة» والجمهور على هذا، وقال بعضهم : لا تصح وإن أجاز باقيهم، لأن المنع فيها حق الشرع فلا يملكونه ولا تجوز وصية لغير وارث فى أكثر من الثلث لقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص : «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» رواه مسلم وأبو داود والنسائى. أى أن المشروع فى الوصية الثلث وهو كثير، بل النقص عنه مطلوب، فإن ترك الورثة أغنياء، خير من تركهم فقراء يسألون الناس ويمدون أكفهم إليهم يطلبون الصدقة ....!

١٩- حكم ولد الزنا ولمن ينسب ....! فالزنا جريمة بشعة، وفاحشة من أكبر الكبائر : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء : ٣٢، وحكم الزانى المحصن الرجم حتى الموت وغير المحصن جلد مائة وتغريب عام أى نفيه. والثمرة المحرمة الناتجة عن جريمة الزنا، لا تنسب إلى الزانى، وإنما ينسب الولد لأمه كما قال الرسول ﷺ : «الولد للفراش وللعاهر الحجر» أى ولد الزنا لأمه وللعاهر أى الزانى الحجر أى الخيبة

والحرمان فلا شيء له، والعرب تقول فى ذلك : له الحجر، وبفيه التراب أى لا شيء له !

٢٠- الانتساب إلى غير نسب صحيح أو إلى موالى غير حقيقتين موجب للعنة الله تعالى : فالإسلام يحافظ على صحة الأنساب ويأمر بمراعاتها إذ على الأنساب تقوم القرابة، وتترتب أحكام كثيرة، فى النكاح والميراث وغير ذلك، وضياع الأنساب أو اختلاطها يؤدى إلى الفوضى ويفضى إلى ضياع الحقوق. الشرع يفرض إلحاق كل ولد بأبيه ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأحزاب : ٥، إنه عدل للوالد الذى نشأ الولد منه وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه وخصائصه وخصائص آبائه وأجداده وعدل للحق في ذاته الذى يضع كل شيء فى مكانه. ويفرض الشرع أيضًا احترام الولاء، ويوجب إلحاق كل معتق بمولاه، والولاء شرعًا : عصوبة سببها نعمة المعتق على عتيقه ويرث به المعتق وعصبته المتعصبون بأنفسهم ففى الحديث الشريف : «الولاء لمن أعطى الورق وولى النعمة» رواه الخمسة. أى الولاء لمن دفع الورق وهى الدراهم المضروبة واشترى بها الرقيق وأولاه نعمة الإعتاق. فمن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً.

إن فى هذه المبادئ العشرين التى تضمنتها الخطبة الجامعة فى حجة الوداع، ما يوضح الحقوق والواجبات، وما يرسم منهاج السلوك الصحيح ويضع أساس الحياة الكريمة، مما لو عمل به المسلمون لكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

هذه هى معانى تلك الخطبة الجامعة، وتلك أهم المبادئ التى احتوتها، وواضح أنها تدور فى إطار إرساء الفضائل الإنسانية، والقيم الإسلامية، ليعم الخير البشرية ولتسود المحبة بين الناس، وليعيش المسلمون حياة طيبة فى دنياهم ولينالوا الثواب العظيم فى آخرتهم.

* * *

ب ـ الألفاظ والأساليب فى الخطبة :

من القضايا المقررة الثابتة التى لا مراء فيها، أن ألفاظ الرسول ﷺ، فى حديثه وخطبه، قد برئت من الأغراب والتعقيد، والاستكراه فهى ألفاظ واضحة سهلة مألوفة لها بهاء ورونق، تعمر بها القلوب، وتنشرح لها الصدور، وترتاح إليها الأسماع والأفئدة.

وبدراسة خطبة الرسول ﷺ -التى سبق عرضها- من ناحية ألفاظها، يتضح ما سبق ذكره، كما يتضح أيضًا أن الرسول ﷺ لم يستخدم السجع - وما جاء منه جاء عفوًا- بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له فى الجاهلية ولذلك صد عنه كما صد عنه الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم.

وقد وضع الرسول ﷺ بأسلوب خطابته، أسلوبًا اتبعه الخطباء من بعده.

فهى تبدأ بالحمد لله، والثناء عليه، ثم بإعلان التوبة والاستغفار والإقرار بالوحدانية للواحد القهار، والتصديق بنبوة المصطفى المختار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يشرع فى الموضوع الذى أراد أن يتحدث عنه.

ويلاحظ على أسلوب الخطبة الجامعة -التى نحن بصددها- كثرة استخدام صيغة أيها الناس ومرجع ذلك إلى عموم رسالة النبى محمد ﷺ، فهو

مرسل إلى الناس عامة، مذ بعث وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك ختم ﷺ خطبته ووصيته بقوله : فليبلغ الشاهد (الحاضر المستمع) الغائب عن الموقف، أو الذى لم يولد بعد.

كما أفادت هذه الصيغة -أيها الناس- صيغة النداء والخطاب جذب الانتباه، وإيقاظ الأسماع والعقول، وتهيئتها للقضايا التى أثارها الرسول ﷺ وذاك مظهر من مظاهر البلاغة فى هذه الخطبة.

كما يلاحظ أيضًا شيوع أسلوب التقرير والإيضاح، حتى يؤمن المستمع بصدق ما يقوله ﷺ، ويستقبل الحكم بيقين واقتناع، وذلك مشاهد فى قضية تحريم المال والدم، وتحريم النفس، وفى بيان حقوق كل من الرجل والمرأة فى الإسلام، وفى إعلان الأخوة بين المؤمنين والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات «إنما المؤمنون أخوة» إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى.

هذا وقد سيطر الأسلوب الخبرى على أساليب الخطبة، ويرجع ذلك إلى أن جل هم الرسول ﷺ أن يقنع الناس بالحجة والبرهان، بما ساقه من قضايا فى ثنايا خطبته.

كما جاء الاستشهاد ببعض آى الذكر الحكيم -القرآن الكريم- على لسان رسولِ الله ﷺ وذلك فى قوله[1] ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآية.

---

[1] سورة التوبة : الآية ٣٧.

وفى قوله[١] : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . .﴾ الآية.

وفى قوله[٢] : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

كما استوحى الرسول ﷺ قوله تعالى[٣] : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . . .﴾ الآية.

وذلك فى قوله ﷺ : «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث».

واستوحى أيضًا قوله تعالى[٤] : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وقوله تعالى[٥] : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾.

وذلك فى قوله ﷺ : «من ادعى إلى غير أبيه ...».

هذا والخطبة بأسلوبها التى ظهرت عليه، قد جمعت بين عنصرى الاستمالة والإقناع، وهما من سمات الخطبة الجيدة.

وقد تحققت الاستمالة فى الخطبة لاشتمالها على قصر الفقرات والتنوع بين الأساليب، فمنها ما يهدف إلى الإثارة والحث، أو التنبيه كالأساليب التى بدأت بالنداء والأمر «أيها الناس اسمعوا منى، ومنها ما يهدف إلى الإخبار، كما سيطر عليها جو عاطفى هدفه الإشفاق، والحرص على النجاة، وتحقيق الخير، كما تحقق الإقناع فى الخطبة بالتفصيل بعد العموم، والتوضيح بعد الإجمال.

---

[١] سورة الحجرات : الآية ١٠.

[٢] سورة الحجرات : الآية ١٣.

[٣] سورة النساء : الآية ١١، ١٢.

[٤] سورة الأحزاب : الآية ٤.

[٥] سورة الأحزاب : الآية ٥.

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يشعر بدنو أجله وقرب رحيله، ولذا بدأ بقوله : أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا.

وكان يختم كل فقرة من فقرات خطبته، بقوله : ألا هل بلغت ؟ اللهم شهد.

وبقوله هذا، أراد ﷺ أن يبرئ ذمته، من الأمانة التى حملها الله له، ويعلن على الملأ أنه بلغ الرسالة، التى أمر بتبليغها، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

وبعد: فهذه الخطبة بأسلوبها التى جاءت عليه، قد جمعت بين الموعظة الإسلامية، والتشريع لمنهج قويم، حيث عرض الرسول ﷺ على المسلمين أهم مبادئ دستور الحياة الإسلامية الصحيحة، موجزة، مركزة، قائمة على الكرامة والوحدة والتعاون، واحترام المرأة ومراعاة حقوقها ومحاربة الفساد، والبعد عن دسائس الشيطان.

كما أنها كسائر خطبه ﷺ- نموذج للبيان يقتبس الأديب من لفظه، ويجد البليغ فيه المثل الذى يحتذى ليصل بكلامه إلى غايته.

خطبة واصل بن عطاء
الخالية من حرف الراء

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقى بلا نهاية، الذى علا فى دنوه، ودنا فى علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعًا، وعدّله اصطناعًا، فأحسن كلّ شيء خلقه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدلّ على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه، تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلّ كلُّ شيء لسلطانه، ووسع كلَّ شيء فضله، لا يعزُب عنه مثقال حبّةٍ وهو السميع العليم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، إلهًا تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كلّ مخلوق، وتنزّه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصَى فيَحلُم، ويُدعَى فيَسمع، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون. وأشهدُ شهادةَ حقٍّ، وقولَ صدق، بإخلاص نية، وصِدْق طَوِيّة، أنّ محمدَ بن عبد الله عبدُه ونبيُّه، وخالصتُهُ وصفيُّه، ابتعثه إلى خلقه بالبيِّنات والهدى ودين الحقّ، فبلّغ مألُكتَه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيله، لا تأخذه فى الله لومةُ لائم، ولا يصدُّه عنه زعم زاعم، ماضيًا على سنّته، موفيًا على قَصْده، حتى أتاه اليقين. فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاةٍ صلاّها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعافَ ذلك، إنه حميد مجيد.

أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، فأحضُّكم على ما يدْنيكم منه، ويُزْلفكم لديه، فإنّ تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبةٍ فى معاد، ولا تلهينّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها، وفواتن

لذّاتها، وشهوات آمالها، فإنها متاعٌ قليل، ومدة إلى حين، وكلُّ شيء منها يزول، فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبَتْ لكم من حبائلها، وأهلكت ممن جَنَح إليها واعتمد عليها، أذاقتهم حُلوًا، ومزجت لهم سمًّا. أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثَقُوا الأبواب، وكاثَفُوا الحُجَّاب، وأعدُّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد، قبضتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضَّتهم بأنيابها وعاضَتهم من السعةِ ضيقًا، ومن العِزِّ ذُلًّا، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللُّحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُعاين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُحِسُّ منهم مِن أحد ولا تسمع لهم نَبْسا. فتزوَّدوا عافاكم الله فإن أفضلَ الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تُفلحون. جَعَلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظّه وسعادته، وممن يستمع القولَ فيتَّبعْ أحسنَه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب. إن أحسن قَصَص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين كتابُ الله، الزكية آياته، الواضحة بيناته، فإذا تُلِيَ عليكم فاستمعوا له وأنصِتُوا لعلكم تهتدون.

أعوذ بالله القوى، من الشيطان الغوِىّ، إن الله هو السميع العليم. بسم الله الفتاح المنان. قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلدْ ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحى المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم. وأدخلنا وإياكم جنات النعيم. أقول ما به أعِظُكم، وأستَعْتِبُ اللهَ لى ولكم».

هذا هو نص الخطبة، وهو نص ليس بالقصير، وذو قيمة عالية مستمدة من الظروف التى أحيطت به، وحسبها أنها ألقيت بديهة وارتجالاً فى حفل جامع يتصدره والى العراق، ويجتمع فيه علية القوم، ويحشد له أقدر الخطباء،

وأبرع المتحدثين، وسادة الخطباء في عصر واصل، ويتبارى الجميع في مضمار القول، وينتزع الذين سبقوه إعجاب القوم بخطبهم التي صبروها ونمقوها، ثم ينهض واصل من بعدهم وهم يهدر، وبداهته تغلي، ويرتجل هذه الخطبة ارتجالا، ويقتضبها اقتضابًا، ويطيل فيها إطالة، وينزع منها حرف الراء نزعًا، وهو في هذا المقام الرهيب، فاستحوذ على القلوب، وسيطر على المشاعر، وغلب منافسيه بهذه العبقرية الخطابية النادرة.

والخطبة -كما ترى- ذات طابع إسلامي، وتدور حول موضوع واحد غايته التذكير والوعظ، والهداية والإرشاد. وقد استهلها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم ثنى بالشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم. وواضح أنه قد أسهب في مقدمة الخطبة إسهابًا طيبًا لا تعرفه لأحد من معاصريه. وشرع بعد ذلك في الحث على تقوى الله حق تقاته، وعلى الطاعة والعمل الصالح، والتزود بالتقوى لما بعد الموت. ثم أخذ يحذر من الدنيا وزينتها وخدعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها. واسترسل -على هدى القرآن الكريم- يتحدث عن الدول القديمة والأمم الغابرة، متخذًا من ذلك العبرة. ثم عاد مرة أخرى إلى الوصية بالتقوى والعمل الصالح، ودعا إلى الانتفاع بالقرآن الكريم وما يحتويه من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، ونوه بكتاب الله الحق الخالد، وتلا ما تيسر له منه، بعد أن أجرى الاستعاذة والبسملة بأسلوبه الذي يجانب الراء. ثم ختم الخطبة بدعائه لنفسه ولمستمعيه أن يكونوا ممن ينتفع بالموعظة الحسنة.

ويمثل "العدول عن الكلمات ذوات الراء" من أخص خصائص هذه الخطبة ومزاياها الفنية، فأنت إذ تقرؤها من أولها إلى آخرها لا تجد لفظة واحدة تشتمل على هذا الحرف؛ بل تجد كلمات خالية منه، وترادف المشتملة عليه في

المعنى. والملفت للنظر أنه يفر -بحذق ومهارة- من اللفظ الرائي إلى المرادف له، مما ينبئ عن مقدرة فنية لا تتأتى إلا للأفذاذ من الخطباء، فهو حين يريد أن يقول : «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» يقول : «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له». وإذا أراد أن يقول : «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. أرسله إلى خلقه بالقرآن.. فبلغ رسالته» قال : «وأشهد أن محمدًا عبده ونبيه.. ابتعثه إلى خلقه بالبينات... فبلغ مألكته...» وإذا أراد أن يقول : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم» قال: «أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى. بسم الله الفتاح المنان»... وإذا أراد أن يوشح خطبته بسورة من القرآن الكريم فإنه يترك كل السور، ويقتبس سورة الإخلاص لخلوها من حرف الراء. وإذا أراد أن يقتبس من السور الأخرى آيات فيها هذا الحرف، فإنه يتجنب الاقتباس اللفظى، ويلجأ إلى اقتباس المعنى، أو ذكر مرادف اللفظة ذات الراء، كقوله : «لا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظهما»، وقوله : «مثقال حبة» بدلاً من «مثقال ذرة»، وقوله : «أصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم» بدلاً من «أصبحوا لا ترى إلا مساكنهم».

إن بديهته الخطابية الحاضرة، وثروته اللغوية الواسعة، ومقدرته الفائقة على إخفاء لثغته هى التى جعلت اقتباسه من القرآن الكريم يأتى على هذا النحو؛ وهى التى جعلته -أيضًا- يتجنب هذه الكلمات (الآخر - قربه - اقترب - إرادة - ربوبية - رادّ - يقربكم - الآخرة - الصدر - القبور - ديارهم - آثارهم - لا تشعر - ركزا)، وكثيرًا من أشباهها، فقال -بدلاً منها-: (الباقى - دنوه - دنا - مشيئة - ألوهية - معقب - يدنيكم - معاد- الكلكل - اللحود - مساكنهم - معالمهم - لا تحس - نبسا)... وهكذا ترى

"واصلاً" فى كل الخطبة؛ بل فى سائر كلامه وخطبه ومحاوراته، على النحو الذى لمسناه فى الشواهد التى سقناها قبل هذه الخطبة.

على أن هذه الخطبة لا تعد رائعة من هذه الناحية فحسب؛ بل هناك خصائص أخرى تسمو من شأنها، وترفع من قدرها، وتضعها فى مصاف الخطب الممتازة... إذ يشيع فيها -كما ترى- الأسلوب المبنى على المزاوجة والترادف والطباق والمقابلة بين المعانى. وتخلو من الألفاظ الغريبة والمبتذلة والشاذة، وذلك لسمو غرضها ونبل موضوعها. وقد استظهر الخطيب فى مقدمتها: ما كان يقرره من نفى التجسيم عن الله تبارك وتعالى، وأنه ليس كمثله شيء من مخلوقاته. وقد ردد فى محتواها ما كان يجرى كثيرًا فى عصره- على ألسنة الوعاظ والخطباء كالحسن البصرى، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن عبد الملك من الدعوة إلى التقوى، والتحذير من مفاتن الدنيا، وتصوير نهاية الأحياء فى ذل وهوان.

وتشتمل الخطبة -كذلك- على ألفاظ مسجوعة؛ لكن السجع يسير وبدون تكلف، ومواطنه فى الخطبة واضحة يسهل على القارئ الوصول إليها. كما تشتمل الخطبة على الإقناع والاستمالة، ودقة التعبير وقوة التأثير، وتناول الحقائق الملموسة والمسائل الجادة الواقعية النائية عن التهويم الخيالى، ولا غرو؛ فإن الخيال من سمات الشعر لا الخطابة.

وتبدو -فى الخطبة- عناية صاحبها بالتوضيح الكافى، والشرح الوافى، واعتماده على الجمل القصيرة، وعدم الفصل بين أجزائها، واللجوء -أحيانًا- إلى الأسلوب الاستفهام التعجبى، وملاءمة ألفاظ الخطبة للموضوع الذى تتحدث عنه. وهو موضوع واحد -كما ترى- رُتبت أجزاؤه ترتيبًا منطقيًا سلسًا، فجاء كل جزء مبنيًا على الذى قبله. وقد ابتعد الخطيب عن

التكلف وتزويق الكلام، وأكد ما يحتاج من أفكارها إلى توكيد، وابتعد عن الحشو والكلام الكثير الذى لا فائدة منه.

ثم إن هذه الخطبة نموذج طيب من خطب القرن الثانى الهجرى الذى يتسم بالصراع السياسى بين الأحزاب الطامحة للخلافة، وتعدد المذاهب فى علم الكلام، وعلى الرغم من هذا، فقد جاءت وعظًا خالصًا متجنبًا للدعوات السياسية، والتصورات المذهبية والرائع -حقًا- أن صاحبها لم يجامل الوالى الأموى الذى كان يستمع للخطبة بالثناء عليه، وذكر فضله وآلائه، والتنويه بيمن عهده وازدهار أيامه؛ بل استثمر هذه الفرصة وقام بواجب التذكير والوعظ والهداية والإرشاد. الأمر الذى ينبئ بأن الطابع الدينى كان غلابًا -على الخطباء- فى ذلك الزمان، وأن الرهبة الدينية كانت فى قوتها وسلطانها.

وكل ما تقدم من مزايا موضوعية وفنية يجعلنا نقرر -مطمئنين- أن هذه الخطبة الخالية من حرف الراء رائعة من روائع الإبداع فى تراثنا الأدبى، وأن صاحبها قد ملك النبوغ الخطابى، والعبقرية الأسلوبية، وتمام الآلة فى البلاغة والبيان، والقدرة العجيبة المثيرة للدهشة على الاستغناء عن حرف هو من أكثر الحروف دورانًا فى الكلام.

هذا، وقد سجل كل من ابن شاكر، وابن العماد الحنبلى لواصل بن عطاء احتيالات أخرى لهذا الحرف، فقال الأول: «إن واصلاً قد امتحن -مرة- فى قراءة سورة التوبة، فقال -من غير فكر ولا روية : "عهد من الله ونبيه إلى الذين عاهدتم من الفاسقين فسيحوا فى البسيطة هلالين وهلالين"»، وذكر الثانى : «أن واصلاً دفعت إليه رقعة مضمونها : "أمر أمير الأمراء الكرام أن تحفر بئر على قارعة الطريق فيشرب منها الصادر والوارد" فقرأ واصل على

الفور : "حكم حاكم الحكام الفخام أن ينبش جب على جادة الممشى فيستقى منه الصادى والغادى"».

وأنا -في الحقيقة- غير راض عن احتيالات واصل لمرة في قراءته لصدر سورة التوبة، مهما كان دافعه إليها، فإن ما صنعه أقبح بكثير من قبح لثغته التي اضطرته لذلك؛ فإن كلام الله وحي سماوي مقدس لا تتغير ألفاظه بمرادفات لها مهما كانت الظروف والأحوال !!

وعلى كل حال؛ فإن ما ذكره ابن شاكر الكتبي وابن العماد الحنبلي ذو دلالة على أن واصلاً كان يتحرج من هذه العاهة أيما إحراج، وأنه كان يشعر بها شعورًا مستبدًا يدفعه إلى تجنب الوقوع في أشراكها على مسمع من الناس، حتى لو كان المقام مقام تلاوة لآية من القرآن الكريم، يختبره الناس فيها. على أن ذلك يوحي بأن لثغته الشنيعة في النطق بالراء قد ذاعت بين الناس، فكان البعض منهم يداعبه على ضوئها، ويتحين الفرص للتندر به وبها.

ولقد كانت لثغة واصل وما نجم عنها من تجنبه حرف الراء متبعًا ثرا استقى منه نفر من الشعراء بعض صورهم وتشبيهاتهم، وحاول آخرون أن ينهجوا نهجه في إسقاط هذا الحرف من تجاربهم الإبداعية.

هذا هو أبو محمد الخازن يقول -من قصيدة مدح بها الصاحب إسماعيل بن عباد- :

نعم، تجنب "لا" يوم العطاء كما ... تجنب "ابن عطاء" لثغة "الراء"

وقال الأرجاني :

هجر الراء واصل بن عطاء ... في خطاب الورى من الخطباء

وأنا سوف أهجر القاف والثا ... ء مع الضاد من حروف الهجاء

وقال آخر –فى محبوب له ألثغ– :

أجدْ لثغة لو أن "واصل" حاضر ... ليسمعها، ما أسقط الراء واصل

وقال آخر :

أجعلت وصلي الراء لم تنطق به ... وقطعتني حتى كأنك واصل

وقال آخر :

فلا تجعلني مثل همزة [illegible] ... فيلحقني حذفٌ [illegible] واصل

الإمام الشافعـــى

أديب الفقهاء ... وفقيه الأدباء

قـــبل الحديث عن شعر الشافعى يحسن بنا إعطاء لمحة قصيرة عن حياة الــرجل فهو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى القرشى ولد فى غزة بفلسطين ســـنة ١٥٠ هـــ/٧٦٧م ، ثم جاءت به أمه إلى مكة وله من العمر سنتان ، حفظ القـــرآن الكـــريم ، ودرس الحديث الشريف وهو صغير ، وأقام فى الهذليين سبع عـــشرة ســـنة فأخـــذ عـــنهم اللغة الفصيحة ، وروى أشعار شعرائهم ، حتى إن الأصمعى قرأ عليه شعرهم .

لقـــى الـــشافعى مالك بن أنس ، فحفظ الموطأ ، وقرأه عليه ، ثم زار الـــيمن فلما ظهر فيها يحيى بن على بايعه فجئ به مع تسعة من العلويين إلى هـــارون الرشـــيد ، فـــضرب أعـــناق التسعة ، وعفا عن الشافعى ﷺ لعلمه وفصاحته ورعه وتقواه .

وبقـــى الـــشافعى فى بغداد مدة ، ثم تنقل بين بغداد ومكة ومصر مرات متقاربة وكان نزوله مصر فى ٢٨ شوال سنة ١٩٨ هـــ (٢١ / ٦ / ٨١٤ م) .

ولما ذهب إلى مصر قال :-

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ... ومن دونها أرض المهامة والقفر

فوالله لا أدرى أللفوز والغنـــــى ... أساق إليه أم أساق إلى القبـــر ؟!

وما ذهب الشافعى إلى مصر إلا إلى قبره ، فقد توفى فيها يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤ هـ (٢٠ / ١ / ٨٢٠ م) ، ودفن فى الفسطاط (بمصر القديمة) بالقرافة الصغرى ومقامه ومسجده مشهوران إلى اليوم .

كـان الشافعى أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب المعروف باسمه ، كان عالماً بالحديث والفقه واللغة والأدب وبالنجوم والأنساب وقد عرف بالذكاء ، والفطنة والفراسة .

ديوانـــه :-

للشافعى ديـوان شعر صغير يضم ٤٥٠ بيتاً ويحوى ١٣٠ مقطوعة تقريباً ، فجميع ديوانه مصبوب فى قوالب المقطوعات إلا بضع قصائد لا تزيد أطـولها عن خمسة عشر بيتاً ، ويمكن إرجاع الأغراض الشعرية فى ديوانه إلى الحكمة ، والزهد ، وشئ من الفخر بالنفس .

الحكمـــة :-

كانت الحكمة عند الشعراء العباسيين تستمد أصولها من روافد أربعة هى :

١- الفكر .

٢- النفاذ .

٣- الاطـلاع علـى الحكمـة الأجنبية الوافدة من الفرس والروم والهنود وغيرهم .

٤- الإلمـام بالثقافة العربية من شعر ونثر ، وغنى حياة الشاعر بالتجارب الذاتية .

وقد كان الشافعى عربى الثقافة ، وناقد الفكرة ، خبيراً بأحوال الناس مجرباً لهم ، ولو أطلع على الثقافة الأجنبية لاكتسب شعره عمقاً ، وثراء ، لكنه كان يرى فى كل علم غير علوم القرآن والسنة وسوسة من وساوس الشيطان يقول :-

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وعلم الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وتتلخص حكمة الشافعى فى الدعوة إلى التسليم بالقضاء والقدر ، والحض على السخاء والوفاء ، والسماحة ، والقناعة ، والأدب ، وحسن الخلق ، والتواضع ، وعزة النفس ، وفضل السكوت ، وكتمان الأمور ، والحث على العلم ، والسفر والاعتماد على النفس ، والدعوة إلى العفة وإكرام النفس ، وحفظ اللسان ومن أجمل ما قال فى ذلك :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء
وكن رجلاً على الأهوال جلدا وشيمتك السماحة والوفاء
ولا ترج السماحة من بخيل فما فى النار للظمآن ماء
ورزقك ليس ينقصه التأنى وليس يزيد فى الرزق العناء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

وقال فى الدعوة إلى الصبر على طلب العلم :-

اصبر على مر الجفا من معلم فإن رسوب العلم فى نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا ... وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب ، وصحبة ماجد

وقال فى كتمان الأمور :-

إذا المرء أفشى سره بلسانه ... ولام عليه غيره ، فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال فى الاعتماد على النفس :-

ما حك جلدك مثل ظفرك ... فتول أنت جميع أمرك

وقال فى العفة :-

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

وقال فى حفظ اللسان :-

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران

الزهـــد :-

وشعر الشافعى فى الزهد فرع من فروع الحكمة ، ويتلخص هذا الفن فى الاستعداد للمنايا ، والتأهب للآخرة والتوكل فى طلب الرزق على الله والشافعى يدعو إلى التفقه مع الزهد ، دون أن يطغى جانب على آخر فيقول :-

فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا ... فانى وحق الله إياك أنصح

فذلك قاس لم يـــــذق قلبه تقى وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح

ومن أجمل ما قال فى الانصراف عن الدنيا ، والعمل للآخرة :-

يا من يعانق دنيا لا بقـــــاء لها يمسى ويصبح فى دنياه ســــفارا
هلا تركت لـــــذى الدنيا معانقة حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن الــــنارا

والأجمل من ذلك قوله :-

ركوبك النعش ينسيك الركوب على ما كنت تركب من بغل ومن فرس
يوم القيامة لا مــــال ولا ولـــد وضــــمة القبر تنسى ليلة العرس

والزهد يدعو إلى لزوم باب الله ، وإدامة قرعه بالتوبة والتذلل ، والاستغفار ، فها هو يدعو ربه فيقول :-

لقد مننـــت على قلبى بمعرفة بأنـــك الله ذو الآلاء والقـــدس
وقد أتيت ذنوبــــا أنت تعلمـــها ولم تكن فأضحى فيها بفعل مسى
فامنن على بذكر الصالحين ولا تجعل على إذاً فى الدين من كبس
وكن معى طول دنياى وآخرتى ويوم حشرى بما أنزلت فى عبس

<u>الفخــــر</u> :-

ليس فى فخر الشافعى شئ من المبالغة أو التبجح ، مع أن الفخر مديح للـــذات . والشافعى يفخر بذاته ، وعلمه وقناعته ، وعزة نفسه ، والتوكل فى

رزقه على الخالق ، فما دام عنده قوت يومه (فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها) ، فها هو يقول :-

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أزور زيدا وعمرا

ويرى في نفسه أجل وأكبر من نفوس الورى حين ازدراه حلاق لثيابه الرثة فقال :-

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده إذا كان عضبا حيث وجهته فرى

وقال في استقلال شخصيته :-

ولست بإمعة في الرجا ل أسائل هذا وذاك ما الخبر

وقال يفتخر بذاكرته التي تحفظ علمه أينما كان :-

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وقال يفتخر بجوده وتسليم أمره لله :-

أجود بموجودي ولو بت طاويا على الجوع كشحا والشحا يتألم
وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي ليخفى لهم حالي وإني لمعدم
وبيني وبين الله أشكو فاقتي حقيقا فإن الله بالحال أعلم

ما يستشف من شعره :-

إن من يقرأ ديوان الشافعى يلاحظ علمه بطبائع النفوس ، وخبرته بأحوال الناس وكثيرا ما كان يلبس ثوب المرشد ، والطبيب الحاذق ، فقال فى موقف الناس من ذوى العسر واليسر :-[١]

تقلبت فى دهرى رخاء وشدة وناديت فى الأحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت ولم أر فيما سرنى غير حاسد

وكان الشافعى محبا للصالحين لتناله بركتهم ، فيقول :-

أحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنال بهم شفاعه
وأكره من تجارته المعاصى ولو كنا سواء فى البضاعه

وبين أن العلم لا يتم تحصيله إلا بالتفرغ ، فقال :-

لا يدرك الحكمة من عمره يكدح فى مصلحة الأهل
وينال العلم إلا فتى خال من الأفكار والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذى سارت به الركبان بالفضل
بلى بفقر وعيال لما فرق بين التين والبقل

وجعل الشافعى الأمراض فى ثلاثة :-

ثلاث هن مهلكة الأنام وداعية الصحيح إلى المقام
دوام مدامة ودوام وطء وإدخال الطعام على الطعام

وجعل لتحصيل العلوم ستة شروط هى :-

ذكاء وحرص ، واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان .

<u>الصــــور الخيالية فى شعره :-</u>

إن مــا يلفــت النظر فى ديوان الشافعى كثرة لجوئه إلى التشبيهات لا ســيما التشبيه الضمنى الذى يقوم على تشبيه حالة بحالة فشبه على سبيل المثال : اخــتلاف الناس فى الأدب والعقل والحب ، واتفاقهم فى أشياء أخرى بالصفرة فى الذهب الأبريز ، والدخان الذى يفرق بين عود الطيب ، وعود البخور وفى دعوته إلى السفر يشبه المقيم بالماء الراكد الذى يفسد ركوده ، ويشبه المسافر بالمــاء الجــارى الطـ ، ولذلك فإن الأسد لو لم يفارق أجمته لما افترس ، والــسهم لــو لم يفارق القوس لم يصب ، والشمس لو لم تغرب لملها الناس ، والــذهب فــى أرضــه تراب وعود الطيب فى أرضه حطب . وشبه سكوت الشريف عن مخاصمة الجاهل صونا لعرضه بصمت الأسد الذى يزيده مهابة . وشبه كلام الجاهل بنباح الكلاب الذى يدعو الناس إلى زجرها .

وضرب مثلاً لتقلبات الزمن فقال :-

أما ترى البحر تعلو فــوقه جيف   وتستقر بأقصى قاعــه الــدرر

وفى السماء نجوم لا عـــداد لها   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ووصف الواعظ بأمر الناس بما لا يفعل ، فقال :-

كحامل لثيــاب الناس يغسلها   وثوبه غارق فى الرجس والنجس

تبغى النجــاة ولم تسلك طريقــها   إن السفينة لا تجــرى على اليبس

وشـــبه حـــال الورع الذى يزجره ورعه عن تتبع عورات الناس بحال المريض الذى شغلته علته عن علل الناس ، وبين أن الأمر ليس بالقوة فقال :-

أكل العقاب بقوة جيف الفلا ... وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

ودعا إلى الرحيل عن أرض الذل ، وضرب الأمثال المشجعة على ذلك فقال :-

فالعنبر الخام روث فى مواطنه ... وفى التغرب محمول على العنق

والكحل نوع من الأحجار تنظره ... فى أرضه وهو مرمى على الطرق

لما تغرب حاز الفضل أجمعه ... فصار يحمل بين الجفن والحدق

وكل هذه الصور والتشبيهات توليدية مبتكرة يتناول فيها المعنى القريب فيصوره بصورة مختلفة تزيد المعنى المراد تأكيدا فأكسب الأبيات نفسا شعريا متميـزا ، ولـولاها لكان شعر الشافعى إلى نظم العلماء أقرب منه إلى شعر الشعراء .

الألفـــاظ :-

تميــزت أشــعار الـشافعى بالألفاظ السهلة فى ألفاظها والوضوح فى عــباراتها وقد لجأ إلى الأسلوب المباشر فى تقديم النصح والإرشاد فأكثر من ضمائر المخاطب كقوله : دع ، صن ، عاشر ، سامح ، وغيرها وأغلب ألفاظ الـشافعى ومعانيه مقتبسة من ألفاظ القرآن والسنة وفيما تقدم من شعره دليل ذلك .

ومـن أشـعاره مـا يمكن اختصاره فى جملة واحدة . تدل على ذلك التـرجمة التى تسبق كل قطعة ، ومثال ذلك : الدهر يومان يوم لك ويوم عليك ،

من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، وكان الشافعى بعيدا عن التكلف ، غير مهتم بالصناعة اللفظية ولم يتعمد التكلف إلا فى مقطوعة واحدة نظمها فى عزة النفس ، وحشد فيها الكثير من الجناس والتجنيس فقال :-

لقطع ضرس وضرب حبس ... ونزع نفس ورد أمس
وقر برد وقوة فرد ... ودبغ جلد بغير شمس
وأكل ضب وصيد دب ... وصرف حب بأرض فرس
ونفخ نار وحمل عار ... وبيع دار بربع فلس
وبيع خف وعدم ألف ... وضرب ألف بحبل قلس
أهون من وقفة الحر ... يرجو نوالا بباب نحس

الموسيقى فى شعره :-

نظم الشافعى ديوانه على القوافى التالية :-

النون ٤٨ ، الراء ٤٦ ، الميم ٤٠ ، الدال ٣٨ ، الألف المقصورة ١٣ ، اللام ٣٥ ، السين ٣٤ ، القاف ٣٣ ، العين ٢٠ ، الباء ٢٠ ، التاء ١٨ ، الهمزة ١٧ ، الجيم ١٠ ، الصاد ٧ ، الكاف ٧ ، الضاد ٦ مقطوعات ، والناظر فى هذا الترتيب للقوافى يلاحظ أن الشافعى نظم أغلب أبياته على النون والراء ، والميم ، والدال ، واللام ، والسين ، وكلها قواف تقليدية عند كل الشعراء .

وأما القوافى الأخرى كالضاد فلم ينظم عليها إلا قليلاً . وأما البحور الشعرية التى جعلها قوالب لشعره فهى كما يلى :-

الطويل ٤٣ ، البسيط ٢٧ ، الوافر ٢٠ ، الكامل ١٩ مقطوعة . وكلها بحور تقليدية ، مجزوء الكامل ٢٦ ، الخفيف ٥ ، الرمل ٣ ، المتقارب ومجزوء الرمل والمنسرح ١ ، السريع ١ مجزوء الرجز ١ .

والملاحظ أنه نظم شعره على بحور طويلة فإذا التقت مع قوافى النون الواو والراء والميم واللام أعطت الشعر تموجات واهتزازات تساهم فى التصبير عن المعانى المراد التعبير عنها أكثر مما تؤديه البحور السريعة والقوافى الخشنة كالثاء والذال والشين وغيرها .ولم يهتم الشافعى بغير البحر والقافية من عناصر الموسيقى ، فلم يوفر لشعره التقسيمات الداخلية ، ولم يعبأ بموسيقى الحروف إذا التقت الكلمة الواحدة إلا فى مقطوعة عزة النفس التى سبق ذكرها فقد كان كل اهتمامه بتوصيل المعنى الذى يريده بأيسر الطرق .

خصائص شعره :-

لا يجد القارئ لديوان الشافعى إلا غرضاً واحداً نظم فيه أشعاره ذلك هو الحكمة ويتفرع من الحكمة دعوته إلى الزهد ، والاقتداء به فى علمه ، وعزة نفسه وهذا ما يفسر لجوءه إلى شئ من الفخر بالنفس فخراً ليس فيه شئ من المبالغة .

وقد كانت حكمة الشافعى حكمة بناءه ، توجه الناس إلى اتباع ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم فى الدنيا والآخرة ،فكان من الطبيعى أن يتكئ على المعانى والقرآن والسنة ويحملها شعره ، فكان واعظاً يرسم الطريق الواضح للسائرين ولذلك فإنه لجأ إلى الأسلوب المباشر فى الوعظ ، مع أنه كان يضرب الأمثال التى أكسبت نظمه نفساً شعرياً مميزاً . ولا ينتظر من الشافعى

وهـو أحـد الأئمـة الأربعة أن يمدح عظيماً من العظماء أو يهجو سفيهاً من السفهاء أو يتغزل بجارية حسناء فهو القائل :-

سهري لتنقيح العلوم أولى ... من وصل غانية وطيب عناق

ولـم يكـن الـشافعي طـويل النفس في شعره فليس أغلب ديوانه إلا مقطـوعات ، ذلك أنه ما كان يقول الشعر إلا ليأمر بمعنى كريم أو لينهى عن قبيح أو لأنه كان يقول الشعر في مناسبات تعرض له حين يسأل عن مسألة ، أو تحدث لحادثة وللشافعي مقدرة على المناظرة الشعرية ، وفي ديوانه شواهد على ذلك .

وأخيراً فإن الشافعي لم يكن إلا شاعر الحكمة ، والمواعظ الخيرة .. لم يكـن مـن الـشعراء الـذين يتبعهم الغاوون بل كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وقد كان يرى الشعر مزرياً بالعلماء ، ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد بن ربيعة فها هو يقول :-

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولـئن كان الشافعي لم يكن في شعره كفقهه الذى طبقت شهرته الآفاق فـإن له من الشعر ما اشتهر في الناس وانتشر على ألسنة المؤذنين في تذكير الفجر فرحم الله الإمام الشافعي وجزاه عن أمة محمد ﷺ ودين الله خير الجزاء .

المحتويات

